المشرق
بيروت

السنة السابعة والثلاثون — تشرين ١ – كانون ١ ١٩٣٩

في سبيل اتحاد الكنائس

ذكرى المجمع الفلورنتيني

١٤٣٩–١٩٣٩

بقلم الاب فرنان دي لانثرسن اليسوعي

إنَّ لمن اشهر الأحداث في تاريخ النصرانية حدث الثامن من شباط ١٤٣٨، اذ وصل الى مياه البندقية اسطولها الذي اعدّه البابا اوجين الرابع لنقل وفد الروم .

وكانت امارة البنادقة اذ ذاك تقوم بكل ما في وسعها من غنى وحفاوة في استقبال الوفد استقبالًا منقطع النظير ، في اليوم الثاني من وصوله . وقد اوفد البابا ، وهو بندقي الأصل ، صديقه امبرواز تراڤرساري ، رئيس الكمالدول العام ، الى ملاقاة الامبراطور . وعُممت الاوامر بان لا يُهمل شيء في سبيل انالة الشرقيين فكرة سامية عن الضيافة الغربية .

وذلك ان الحدث المذكور لم يسبق له مثيل . كانت تُعقد المجامع العامة .
وكان يأتيها الاساقفة الكثيرون ، فيتجشمون مشاقّ الاسفار الطويلة من اطراف
الامبراطوريّة الى القسطنطينية ، او الى أفسس ، او الى سرديك . وقد حضر
الامبراطور ميشال باليولوغ بنفسه مجمع ليون الثاني سنة ١٢٧٤ ، فقدّم الى البابا
غريغوريوس العاشر شهادة الايمان التي اتخذها عن سلفه اكليمنضوس الرابع .
ولكن لم يشهد اي مجمع من المجامع السابقة مثل هذا الحشد من الاساقفة
الشرقيين يقودهم امبراطورهم وبطريركهم فيهبطون بلاد الغرب للبحث والمداولة
بشأن الاتحاد . أوَليس هذا حدثاً فريداً ؟ أوَليس جديراً بان تُعلّق عليه أعظم
الآمال ؟

وبما كان يزيد في اهمية الحدث المذكور، فيعزّز الآمال المعلّقة عليه ، هو ان
الفريقين المتداولَين كانا بأمسّ الحاجة الى الاتحاد ، بل كانا لا يستطيعان الاستغناء
عن الاتحاد .

٥

كان الاتحاد ، في نظر الروم ، من تلك المسائل الخطيرة ، المؤدّية الى حياة
الامبراطورية او الى موتها . هي سلامة المملكة تتعلّق بنتيجة المناقشات . وستتضح
هذه القضية بجلاء ، بعد خمس عشرة سنة ، اذ يدخل محمد الثاني عاصمة الدولة
فيقضي على الامبراطورية البيزنطية . بيد ان الروم كانوا يشعرون ، منذ السنوات
البعيدة ، بقرب الخطر العثماني المتقدّم يوماً فيوماً مضيّقاً عليهم الخناق . ذلك ان
الاتراك لم يكتفوا بالسيادة في آسية الوسطى ، حيث جعلوا من مدينة بروسة
عاصمة لهم ، بل اخذوا يتحرّبون الى البلاد البلقانية . وها ان سلطانهم مراد
الأول يضع يده منذ السنة ١٣٦٠ ، على ادرنه وفيليبوبولي من تراقية ، وعلى
قسم من بلغارية ومقدونية . ولا ينتهي القرن الّا وقد اصيب المسيحيون بانكسار
نيكوبولي على نهر الدانوب ، على رغم ما اظهره من شجاعة فرسان الفرنسويين
الذين اسرعوا بقيادة جان سان بور تلبيةً لنداء سيجسموند ملك هنغارية ، فلم
يمكنهم الّا تخليص الشرف في تلك المعركة التي كان تهوّرهم من اسباب خسارتها .
وكان يحقّ لبايزيد ان يعدّ نفسه سيد القسطنطينية من ذاك الحين ، لولا ما

كان من ظهور تيمورلنك في الافق الشرقي، فاضطرار السلطان الى دخول آسية لمحاربته. ولكن لم يكن تراجع الاتراك الّا هدنة موقتة. فبينا كان المجمع الفلورنتيني على وشك الانعقاد، كان مراد الثاني، حفيد بايزيد، يستعيد الممتلكات البلقانية التي كان قد احتلّها جده. اما المآثر الحربية التي قام بها جان هونياد في سربية وڤالاشية، واسكندر برغ في البانية، فلم تتمكن الّا ان تؤخر بضع سنوات ذاك الخطب الهائل الذي كان للاتحاد وحده، لو تمّ، ان يتداركه، ويحول دونه، بجعل امراء المسيحية في الغرب ينضمّون الى الروم في مقاومة الاتراك العثمانيين.

هذه المعونة الغربية هي التي جاء يطلبها الامبراطور جان باليلوغ. وكان لا بدّ للحصول عليها من الاتحـاد الديني. فرغب فيه الامبراطور رغبة تامّة، مخلصة الارادة، قويّة الفاعلية دفعته الى ان يترك مقاليد الدولة في يد اخيه قسطنطين لأجل غير محدّد، ويأتي بنفسه فيحني امام رومة جلال بيزنطية العريق، والى ان يتابع الجهود في هذا الاتحاد طول اقامة الروم في ايطالية. ولكن هل كانت هذه الرغبة كافية التجرّد؟ هو ما قد نشكّ فيه اذا اعتبرنا ما يتطلبه دوام الاتحاد من ضمانة خالصة. وذلك انه لم يكن لهذا العمل الالهي المحض، عمل الاتحاد، ان يتمّ تحت وطأة الخطر التركي ولا في جوّ المشاغل السياسية. انما تُعدّه دعوة حارّة عميقة ترفع بها النفوس نحو الوحدة.

ولم يكن في الاوساط الرومية، اذ ذاك، ما يهيب بها الى هذه الدعوة. فلم يهزّ الروم ذاك الفرح المنفجر في الكلمات الاولى من البراءة البابوية في الاتحاد، ذاك الفرح الذي يترك السماء والأرض في البهجة والحبور، والذي عمل، ولا شك، على هزّ افضل ممثليهم في فلورنسة.

ولهذا لم يلاقِ اعضاء الوفد الرومي، عند رجوعهم، الّا استقبالًا باردًا من قبل الشعب الذي كان قد سئم الانتظار الطويل، ولم ترضه تلك الوعود بمساعدة تركه حتى الآن في حالة متقلقلة مضطربة. وكانت قد اثرت فيه اسوأ أثر دعاية الرهبان، معاكسي الاتحاد، بما كانوا يروّجونه في عظاتهم ودعاويهم من ان الاتحاد يُساوَم عليه في المجمع مساوَمة السِلَع.

وهكذا اصبح مرقس الأفسسي، من ظلّ في المجمع عدوّ الاتحاد الوحيد لا يضعف ولا يلين، اشبه ببطل مجاهد بل بشهيد في نظر الشعب. اما الذين وقّعوا على صكّ الاتحاد فان البعض منهم — وهم الاقلية، على ما يظهر — كأنطوان الهرقلي، وسكولاريوس، رجعوا عن توقيعهم. وتحقّق الباقون ضعف ذاك الاتفاق الذي قاموا به في ظروف ظهرت موافقة من الوجهة البشرية...

ولنترك التفاصيل الآن من الناحية الشرقية، متجهين جهة الغرب دارسين حالته. هو ايضاً كان يرجو الاتحاد ويحتاج اليه.

فان الكنيسة لم تكد تخرج من الانشقاق الكبير، المعروف بالانشقاق الغربي، بفضل انتخاب مرتينوس الخامس، حتى تهدّدها خطر جديد لا يكاد يقلّ في شيء عن الخطر السابق.

وذلك انه خوفاً من الانشقاق الذي طالما قسم السلطة المسيحية العليا الى سلطتين تدّعي كل منهما السيادة حتى لم يكن يتسنّى دائماً لأقوم الناس نيّة ان يعيّنوا السلطة الشرعية بينهما فيخضعوا للبابا الصحيح، — خوفاً من الوقوع في مثل هذا الانشقاق، نشأت فكرة جديدة لدى الكثيرين من ذوي الآراء، ولم تلبث ان اتسع انتشارها يوماً فيوماً. وكان مرماها تعزيز صلاحية المجامع العامّة وجعل سلطة المجمع فوق سلطة البابا، في ايّ حال، حتى وان حكم هذا فردًا دون معارض.

وكان من نتائج هذه الفكرة ان قُرّر في كونستانسة عقد المجامع العامّة، على طريقة دوريّة. فعُقد مجمع بال سنة ١٤٣١، بعد مجمع سيانة سنة ١٤٢٣، تنفيذًا لهذا القرار. وعندما كانت تُرسل الدعوات لهذا المجمع الاخير، كان اوجين الرابع، كوندولمارو، يرقى عرش البابوية خلفاً لمرتينوس الخامس.

وكان اوجين الرابع بندقيّ الأصل، من أسرة شريفة، دخل صغيرًا رهبنة الاوغسطينيين في دير مار جرجس في ألغا. ثم رقّاه خالة غريغوريوس الثاني عشر الى رتبة الكردينالية. فاحتفظ بما عُرف به من تقوى عميقة، ونظام دقيق في الحياة. كما انه ظهر حبرًا اعظم جديرًا بالاحترام، مدقّقاً في اعماله، راغباً في

استشارة الخبراء الصالحين. وقد اتّصف في استقباله وفد الروم بكثير من المرونة واللباقة ، ففهم عقليتهم وعرف ان يراعي رقّة شعورهم السريعة التأثّر فطرةً ، وقد زادها تبرّلًا للتأثّر ظروفهم الحاليّة وحاجتهم الى المعونة .

ساس اوجين الرابع الكنيسة في تلك الاحوال الصعبة ، وعمل جهده حتى اتمّ المجمع جلساته وأثمر ثمارًا لم تضمحلّ جميعها في ما بعد . وذلك انه ، ان يكن الاتحاد ظهر وقتيًا زائلًا ، فان اعمال المجمع وتحديداته لا تزال موجودة ، فوق ما اتى من ثمار اقلّ وقعًا حسيًّا ، وان لم تكن اقل اهمية . منها ان المتنمين والمتناقشين عرفوا بعضهم بعضًا وادرك كل فريق مواهب الفريق الثاني فزاد الاحترام المتبادل بين الشرق والغرب ، وشعر لاهوتيو اللاتين بضرورة الرجوع الى المصادر اليونانية ، كما شعر الروم انفسهم بضرورة اعادة النظر في كنوزهم الاصلية ودرسها درسًا دقيقًا .

بيد ان الكنيسة كانت بحاجة اذ ذاك الى حبر اعظم كلاون الكبير او كغريغوريوس السابع ؛ ولم يكن اوجين الرابع واحدًا منهما . وكان قد اساء صنعًا — عن حسن قصد ، دون شكّ — منذ عقد مجمع انتخابه ، فقيّد نفسه بصكّ يضع فيه سلطته تحت رقابة الكرادلة . هي تلك النزعة التي اشرنا اليها راميةً الى الحطّ من السلطة البابوية تارة في سبيل تعزيز سلطة المجامع العامة ، وطورًا ، كما هي الحال هنا ، في سبيل تعزيز سلطة الكرادلة ، وليس لمجمعهم في اصل وضعه الا صفة استشارية .

هذه النزعة هي التي اخذت توحي مناقشات مجمع بال واعماله ، على طريقة كانت تزداد خطرًا يومًا بعد يوم على سلطة البابا .

ولا يمكنني ان اطيل البحث في اعمال هذا المجمع ، الذي يشكّ الكثيرون في صفته المسكونية منذ بدء اعماله ، بسبب تأليفه ، وما كان في جلسات المناقشات فيه من قلة الاساقفة وكثرة الاكليريكيين الخالين من كل صفة انتدابية ؛ ولاسيما بسبب الخلاف الذي حصل بينه وبين البابا .

وفي السنة ١٤٣٧ ، عزم اوجين الرابع على نقل المجمع . ثم عين مدينة فرّاري مركزًا له . فاحتجّ اعضاء بال في اكثريتهم ، وامتنعوا عن الامتثال .

واذا بالانشقاق يذرّ قرنه من جديد . ولم تكن سلطة الحبر الاعظم ، اذ ذاك ، من الوضوح بحيث لا يضلّ في بال بعض من تعدّهم الكنيسة في الاوج من الكرامة والقداسة ، من امثال لويس ألمان ، رئيس اساقفة أرل ، الذي رفعه الحبر الاعظم ، بعد ذاك ، الى مصافّ الطوباويين .

واذًا فان الغرب كان يتخبط في وسط ازمة مهمة هي أزمة السلطة البابوية . وليس من شكّ في ان مجمعنا الفلورنتيني عزّز هذه السلطة ، وان يكن هذا التعزيز اتى عن طريق غير التي كان يرجوها عاقدو المجمع .

ولنكتفِ الآن بالاشارة الى ايّ حدّ كان الاتحاد مرغوباً فيه ، ان من جهة البابا ، وان من جهة اليونان . وأيّ مجد كان ينال البابوية ، تجاه عصاة مجمع بال ، وقد ظفرت بجميع الاخوة المنفصلين منذ اربعمائة سنة ، في تلك الظروف التي كان انشقاق جديد يهدد فيها السلطة البابوية . وقد بدا هذا النصر الادبي بمظهر جلي عندما اعلن الروم عزمهم على الذهاب الى فرّاري ، على رغم ما كان يقوم به موفدو مجمع بال من جهود في دعوتهم اليه ، وما كانوا يعرضون عليهم من مواعيد .

هذا ملخّص موقف الفريقين في السنة ١٤٣٨ .

وقبل ان ندخل في تاريخ المداولات المجمعية نشير بكلمة الى مصادرنا :

ان المحاضر الرسمية التي كان يدوّنها كتّاب محلّفون (ثلاثة من الروم وثلاثة من اللاتين) قد فُقدت باجمعها . ولنا في القيام مقامها ثلاث وثائق نُشرت في المجموعات الكبرى الخاصة بنشر وثائق المجامع كمجموعات هردوَن ومانسي .

١ — الوثيقة الاولى . مذكرة رومية وضعها باليونانية احد آباء المجمع نجد فيها هذا القول : « نحن الاساقفة العشرة المعيّنون ... » ويرجح ان واضعها دورثاوس المتيليني . تُرجمت الى اللاتينية سنة ١٥٢١ ثم سنة ١٦١٢ ، بقلم متياس كاريوفيلوس .

٢ — مجموعة اعمال جمعها في القرن السابع عشر ل . ألاتيوس ونشرها أ . جيوستنياني قيّم المكتبة الفاتيكانية . وهي في اساسها مذكرة كتبها

اندري دي سانتاكروس، من اشراف الرومان، الحاضر في المجمع. وأُضيف اليها بعض الوثائق.

٣ — الوثيقة الثالثة من تأليف كاهن رومي اسمه سيروبولوس كان من الدّ اعداء الاتحاد، وبالتالي يظهر على كثير من التحيّز. وضع في هذا المؤلّف كل الشكاوى، حقيقية او موهومة، التي كان يوجهها الروم الى دعاة الاتحاد. وقد بالغ فيها المترجم الطابع، الانكليزي روبر كريتون.

ولنعد الى المجمع:

عند وصول الروم كان المجمع ملتئماً منذ شهر. وقد جرت حفلة افتتاحه الرسمية في ٨ كانون الثاني ١٤٣٨، في كاتدرائية فرّاري، ترأسها الكردينال نقولا ألبرگاتي، موفد البابا، مكلّفاً رسمياً مهمة المداولة بشأن الاتحاد، وبشأن اصلاح الكنيسة، وبشأن السلام.

ولم يصل البابا الّا في ٢٤ كانون الثاني.

اما الامبراطور فقد تأخر اياماً في البندقية. ولم يتركها الّا في ٢٨ شباط وفي ٤ اذار دخل فرّاري دخولًا حافلًا بالابهة والجلال.

ولم يبقَ لنا من مدينة فرّاري القديمة الّا شاهدان: القصر العديم الزخرف الشامخ بركنيه وبرجه، الذي كان مقام دوق ديست؛ والكاتدرائية الفخمة على عدم الوحدة في طرازها، بواجهتها القوطية الملصقة في القرن الثالث عشر على اصل البناء الروماني.

على ان فلورنسة قدّمت للمجمع، بعد ذاك، إطارًا اجدر وأليق. في السنة ١٤٤٠، كانت فلورنسة لا تزال في نهضتها البنائية، بهمة الفراندوق قزما المديسيي. كان دير القديس مرقس لم يتم بناؤه بعد. ولكن قبة برونيليشي (وقطرها يبلغ ضعف قطر البانتيون) قد اخذت تلقي ظلالها على كاتدرائية المجمع. وكانت ابواب لندريا پيزانو، التي عدّها ميكال انج «جديرة باقفال السماء»، تزين مكان العماد.

وكما تأخر الامبراطور فقد تأخر البطريرك ، تعيقه حوائجه التي لم يشأ التخلي عن شيء منها . فلم يصل الى فراري الّا في ٧ اذار .

ولم يكن من السهل ان تُعدّ القصور والمنازل لسبعمائة ضيف بين اساقفة ، وامراء ، وموظفين ، وكتبة ، واتباع . وهو عدد الوفد الرومي . فصرف مرتّبو الحفلات ، ورجال الاستقبال جهودًا جمّة في تعيين المقامات ، وتوزيع المنازل على اصحابها ، كلّ حسب رتبته .

وكانت مشاكل البروتوكول ، كما هي اليوم ، تظهر من الامور الجوهرية في نظر المتقيّدين بها . فكادت ، غير مرّة ، ان تقود الى اخفاق المجمع .

وقد اظهر البطريرك كل اهتمام بهذه المظاهر ، منذ وصوله الى البندقية ، وهو ما يبدو من ذاك القول المنسوب اليه : « ان كان البابا اسنّ مني ، فاني اعتبره كأب . وان كان من عمري نظرت اليه كأخ . وان كان اصغر مني سنًّا ، نظرت اليه كابن . »

اما الامبراطور فقد اعلن مرّتين ، في اثناء اقامته بفرّاري ، انه لا يرضى بالتنازل عن شيء من عادات الجلال والاحترام المتّبعة في بلاط بيزنطية ، حتى في حضرة البابا . في المرّة الاولى ، في ٨ تشرين الاول ، كان يستعدّ لاولى الجلسات الحافلة ، فقرّر ان يصل على جواده فيدخل راكبًا ردهة الاجتماع حتى يبلغ المنبر الذي أعدّ له . وعندما اوقفه خدم البابا على الباب ، أظهر الامتعاض الشديد وهدّد بترك المجمع . وفي المرة الثانية ، في ٢٧ تشرين الثاني ، لم يقم بالسلام عليه موفدو دوق بورغونية فور وصولهم ، فغضب . ولم يعد الى جلسات المجمع الّا بعد ان قام المذنبون بتعويض حافل .

على انها حوادث عرضية . فان اوجين الرابع بكياسته المعروفة . تدارك كل ما يمكن ان يؤدي الى اصطدام في نظام الاستقبالات والعادات البلاطية . ولم يبقِ من ميزاته الخاصّة والحقوق الواجبة له الّا ما لم يكن بامكانه التنازل عنه ، محافظةً على مقام الكرسي الرسولي . فليس من ركوع امامه ، ولا من تقبيل رجل . وهو يقف عند وصول البطريرك ويعانقه مقبّلًا اياه في الخدّ ، ولا

يكلف سائر الاساقفة ألّا تقبيل يده ، وهي عادة دارجة عندهم ؛ وكان البابا يرفعهم حالاً فيعانقهم معانقة اخوية .

ومما اقتضى درساً طويلاً طريقة ترتيب الكراسي في ردهة الجلسات . وقد افادتنا الوثائق معلومات دقيقة بهذا الشأن .

في كاتدرائية فرّاري كان الروم يختصون بالجهة اليمنى ، اي جهة الرسالة ، واللاتين بالجهة اليسرى ، جهة الانجيل .

وكان في مقدمة جهة اللاتين عرش البابا . والى جنبه ، اوطأ منه قليلاً ، عرش الامبراطور الجرماني . وقد ظلّ خالياً لان الامبراطور سيجسموند كان قد توفي في كانون الاول ١٤٣٧ .

فكان هذا الدهاء في الترتيب كافياً لجعل عرش الامبراطور البيزنطي في مقام عرش زميله الغربي . واذا بالبطريرك يحتل مركزه الى جنب امبراطوره .

وكان الكرادلة والاساقفة اللاتين يقيمون وراء البابا . وممثلو بطاركة الشرق ، مع الاساقفة الروم يجلسون وراء الامبراطور .

وقد اتّبع هذا الترتيب في جميع الجلسات مع شيء من التغيير الطفيف وفقاً لمساحة الردهات المختلفة والاحوال المتباينة . من ذلك انه يظهر في بعض الجلسات ان الاعضاء كانوا يجلسون على شكل مربّع يحتلّ عظماء الروم واللاتين جهتيه متقابلين . ويجلس الاساقفة وسائر الاعضاء على الجهتين الاخريين .

وفي الوسط منبر الخطباء يتعاقب عليه الروم واللاتين . وقريباً منه المترجم ساكونديتو ، ينقل حالاً كل ما يقوله الخطيب الى الجهة التي لا تفهم لغته .

هذا مشهد الاجتماعات الخارجي ، وترتيب الجلسات القانونية . بيد ان الجلسات لم تحتلّ الّا قسماً من المجمع ، القسم الاوسط بالنسبة الى مدة عقده . وقد تقدّم وقت الجلسات زمن انتظار طويل قامت فيه اللجان الفرعية باعداد الأعمال ؛ وتبع الجلسات زمن مداورات اشبه بما تتطلبه الشرائع في تحويلها من مجلس الى مجلس .

ولنتقدّم الى معرفة هذا المجمع من جهتيه :

من جهة اللاتين

كان في المجمع ٨ كرادلة وبطريركان لاتينيان (بطريرك اورشليم وبطريرك سرادو) يجلسون وراء البابا .

وفي اسفل منشور الاتحاد ٦١ توقيعاً لرؤساء الاساقفة والاساقفة، و٤٣ توقيعاً لرؤساء الرهبنات .

ويجدر بنا ان نذكر بين الكرادلة اثنين كان لهما في اعمال المجمع نصيب أوفر من انصبة الباقين :

الطوباوي نقولا البرگاتي، كردينال الصليب المقدس في اورشليم، الذي افتتح المجمع باسم البابا ، قبل وصول الروم .

الكردينال يوليانوس سيزاريني ، كردينال سانت سابين ، المدعوّ غالباً كردينال الملاك القديس . وقد مثّل دوراً مهمّاً في حبرية اوجين الرابع ، في مجمع بال ، وفي الحملة الصليبية على الهوسيين ، وطول المناقشات والقرارات في فرّاري وفلورنسة . وكان من عادته ان يسود المناقشات ، فيتابع بدقة كل خطيب في عرض نظريته ، يعينه تارةً ، ويخفف من غلوائه طوراً ، يسدّ ثلمةً ، او يوحي بنصّ موافق ، أو يعطي جواباً حاسماً . وعلى الجملة فهو يظهر ، مدة المجمع ، مستشار البابا الخاصّ ، وقد كان جديراً بهذه الثقة .

ومن الشخصيات البارزة في المجمع ، بعد الكردينالين المذكورين ، تذكر اندري اسقف رودس (الذي تدعوه بعض محاضر الجلسات بالجبّار) . وقد اعتاد عرض العقائد بكثير من الاندفاع ، مسهباً في الشروح وايراد النصوص ، مطلعاً الاطلاع العميق على مؤلفات الآباء اليونان ، وعلى تاريخ المجامع ، الّا ان خطبه الطويلة كانت تضجر الحاضرين احياناً فيتذمّرون ويضطر الكردينال يوليانوس الى التدخّل .

ونذكر اخيراً اثنين من الآباء الدومنيكان :

اولهما جان دي مونتنيرو المدعو ايضاً جان دي راغوز ، رئيس الدومنيكان في اقليم لومباردية . وهو لاهوتي نابغ في جميع المواضيع ، بل هو خير الخطباء

اللاتين دون شك .

وثانيهما جان دي توركيمادا الذي جُعل كردينالاً في ما بعد . وهو غير سميّه الذي يلوّح باسمه اعداء الكنيسة كلما تكلموا عن ديوان التفتيش .

من جهة الروم

اول من نذكر منهم البطريرك يوسف ، بطريرك القسطنطينية ، شخصية تكاد تكون متضائلة ولاسيما اذا قارناها بالامبراطور . فان هذا كاد ان يوحّد في شخصيته مثل الروم الاعلى ، فيلفت الانظار وحده ، وعلى اثره يسير موفدو الروم في اقوالهم واعمالهم.وان يكن قد اتصف من دقة الفهم وحسن الذوق بما يمنعه من الخوض في مجال العقائد والتحديدات، محوّلاً دائماً على ارباب الاختصاص في هذه الشؤون ، فانه لا يتراجع عن ادارة المناقشات من جهة الروم بل من الجهتين معاً في ذاك المجمع الذي لم يكن له من رئيس .

وهي حالة غريبة ، انما يهيمن عليها ، فيمنعها من التهوّرات المؤسفة ، خيال قسطنطين الكبير . وقد جعلها مقبولة في فلورنسة ما فُطر عليه اوجين الرابع من كياسة وخلق مسالم على خلوّه من الضعف .

بيد ان البطريرك الشيخ المريض الضعيف ، المتضائل في ظلّ الامبراطور ، بقي يتمتّع ، في نظر مرؤوسيه ، بالخطر المميّز اول مركز بطريركي في الشرق . فيجتمع الاحبار الروم في غرفتـه عاقدين الحلقات الخاصة التي تبعت الجلسات العمومية.وقد وجد البطريرك الشيخ ، في وضرح ايمانه البصير ، مشروع اعتراف اتحادي بالروح القدس اجمع الاعضاء على الموافقة عليه . بيد ان الموت فاجأه بعد ذلك ببضعة ايام ، في ١٠ حزيران ، وهو الى طاولته ، وقد انتهى من تدوين وصيته الاخيرة . وكان من مفعول هذه الوصية ، ومن موقف صاحبها الراغب رغبة مجرّدة في الاتحاد ، ان اخذ من بقي من المعاكسين يتقرّبون شيئاً فشيئاً . فشاء البابا ان يُقدّم لجثمان الراحل الجليل كل ما يليق بمركزه البطريركي من جلال واكرام . ثم دُفن في كنيسة سانتا ماريا نوفيلا بفلورنسة ، ولا يزال في الكنيسة الرومانية عربون الاتحاد المقبل .

والى جنب البطريرك يوسف ، كان من المنتظر ان يجلس بطاركة الاسكندرية ، وانطاكية ، واورشليم ، وقد أُرسلت اليهم الدعوات منذ السنة ١٤٣٦ . على انهم رأوا من الحذر الّا يلبّوا بانفسهم دعوة الامبراطور فاوفدوا ممثّلين عنهم وزوّدوهم ، بعد الصعوبات الجمّة ، بسلطات غير محدودة . وهذه اسماؤهم :

عن الاسكندرية : انطوان اسقف هرقلة، وغريغوريوس ماماس پروستنجلوس القسطنطينية .

عن انطاكية : مرقس اوجينيكوس ميتروپوليت افسس ، وايزيدور الكياڤي .

عن اورشليم : دنيسيوس السردي ؛ ثم بعد وفاته ، دوزيتي النومنبازي .

واشهر مَن يذكر بينهم جميعاً مرقس الافسسي . ومن الصعب علينا ان نحكم بتجرّد على هذا الخصم العنيد الذي لم يفتر لحظة عن معاكسة الاتحاد. فلنكتفِ بتدوين صراحته وعدم تذبذبه . وله فيها الفخر على من بدا مضطرب العقيدة متغيّر الآراء. كانطوان اسقف هرقلة ، الذي بعد ان وقع على وثيقة الاتحاد ، ارتدّ عن رأيه وأخذ بمحاربة المجمع . اما مرقس الافسسي فيظهر لنا ، على تعمّقه في الدروس الكتابية ، عاجزاً عن قبول ما لا يوافق تقليده الحرفي الدقيق - وكأنه ، في اجوبته المضطربة احياناً لدى اشتداد المناقشات ، لا يرى الّا ما اعتاده وحفظه ، وشبّ عليه .

بقي ان نحيّي الى جنبه ، دعلة الاتحاد المدافعين عنه وهم : بسّاريون ، وايزيدور الكياڤي ، ودوروثاوس اسقف متيلينه .

وكم وددت لو اتيح لي ان اتوسّع في الكلام عن شخصية لعلّها من اجذب شخصيات المجمع واسماها ، هي شخصية بسّاريون ، الذي سيصبح كردينال الكنيسة الرومانية ؟ فاكتفي بالقول انه كان ، من جهة الروم ، في مسألة انبثاق الروح القدس خاصة ، افضل العاملين على الوحدة الداخلية والداعين الى الاتحاد . امّا وجهة نظره في هذه النقطة فيظهر انها ثبتت مدة المجمع . ولكن له الفضل بان جمع ولخّص براهين اللاتين في رسالة موجزة قدّمها الى زملائه ولا

تزال خير ما كُتب في الموضوع .

اما ايزيدور الكيافي ، ممثل العالم السلافي في المجمع ، فلم يتمكن ، بعد رجوعه الى بلاده ، من نيل الموافقة على مقررات المجمع . فارتد الى رومة يعيش فيها متحداً مع الحبر الروماني الذي مجّده بحلة الارجوان .

وهناك كثير من الاسماء يعرفها العلماء لا اللاهوتيون فقط ، من امثال سكولاريوس ، وجينيستوس ، وفليتون ، وبَلَّمون ، وكسانتوبولوس . وكلهم من كبار المتضلعين حتى صحّ القول انه ، وان يكن المجمع قد حُرم رئاسة مدبر بصير ، فقد امتاز بما مثّل فيه اعضاؤه من علم ومواهب متنوّعة .

ولنلخص الآن مراحل تاريخه

وهي تُقسم طبعاً الى حقبتين : فرّاري من اذار ١٤٣٨ الى كانون الثاني ١٤٣٩ — وفلورنسة كانون الثاني ١٤٣٩ الى ٦ تموز ١٤٣٩ ، وقد حدث فيه لا ، ختام المؤتمر ، بل تاريخ التحديد الاحتفالي المعروف بقرار اتحاد الروم .

ثم تابع المجمع اعماله ، بعد هذا التاريخ ، في فلورنسة اولا مع موفدي الارمن . ثم في رومة حيث دوّنت قرارات الاتحاد مع سائر الكنائس المنفصلة من يعاقبة ، وكلدان ، وقبط ، ومنفصلي القبارصة .

وكل حقبة من حقبتي فرّاري وفلورنسة تقسم هي ايضاً الى عهدين : في فرّاري : عهد الانتظار ، ثم عهد الجلسات العامّة . وفي فلورنسة : عهد الجلسات العامّة حتى عيد الفصح ، ثم عهد المباحثات والمداولات الاخيرة .

وصل الروم الى فرّاري في اوائل اذار .

وكان القوم لا يزالون في انتظار آباء بال ، ووفود الامراء الذين كان قد دعاهم البابا . اما البالّيون فكانوا يظهرون العناد حتى ان مجمعهم ، وقد اصبح منشقّاً ، احتفل في ٢٤ اذار بجلسته الثانية والثلاثين فاعلن فيها تفوّقه على البابا . واما الامراء فلم يوفدوا احداً عنهم .

فباشر البابا في ٩ نيسان ، افتتاح المجمع الاتحادي بجلسة حافلة . وكان

البطريرك مريضاً ، فتُليت رسالته التي يعترف فيها بالمجمع ، ويتمنّى ان يشترك فيه جميع الغربيين ، معلناً الحرم على كل من لا يقرّ بــه . وبعد ذلك تُليت براءة اوجين الرابع

وتلا الجلسة الافتتاحية زمن فراغ طويل . كان فيه الروم يطلبون حضور الامراء ، اما الامبراطور فقد انصرف الى الصيد في ممتلكات دوق ديست .

وبفضل ما بذله البابا من الجهود ، توصّل الى تأليف لجنة لاهوتية يشترك فيها عشرة من الروم وعشرة من اللاتين ، فيجتمعون في كنيسة الفرنسيسكان لدرس الموضوعات المختلف عليها .

وسرعان ما اتفق الاعضاء على ان يحصروا في اربعة مواضيع اهم نقاط الخلاف وهي : انبثاق الروح القدس — الفطير — المطهر — رئاسة الحبر الاعظم . وهي النقاط التي خاض فيها واضعو التحديدات .

اما مسألة التقديس ومفعولية كلمات المسيح التي يردّدها الكاهن ، فقد اكتُفي فيها ، باعتراف شفهي قام به بسّاريون بحضور البابا والكرادلة في اليوم السابق للتحديدات .

على ان لاهوتيي الروم ، اعضاء اللجنة لم ينالوا من الامبراطور الموافقة على اجراء المناقشة الّا في شهر حزيران . وفوق هذا فقد حصر هذه الموافقة بالموضوعين الاخيرين . فخُصّ شهرا حزيران وتموز بعقيدة المطهر . واني اكتفي في صدد تلك المناقشات بذكر الخطيبين الشهيرين اللذين تولّيا المناقشة وهما : مرقس الأفسسي ، وجان دي تور كمادا . وقد كانت المناقشة دقيقة متتابعة البراهين من جهة اللاتين ، حتى اظهروا شيئاً من الاضطراب والغموض في آراء الروم بشأن الكفّارة ، كما اظهروا الثلمة الواهية في لاهوت الكثيرين منهم بعدم ايضاح الفرق بين الإثم والجزاء ، بين الخطيئة المغفورة بفضل الحلّة ، والتكفير الواجب على اثر هذه الحلّة .

اما اعمــال المجمع في تلك الحقبة فقد نُشرت مؤخراً في مجموعة الآباء الشرقيين للمنسنيور گرافن . فظهر انها كانت تُعدّ ، على افضل ما يمكن ، التحديد النهائي في هــذا الموضوع . وهو التحديد نفسه الذي اكتفى المجمع التريدنتيني بان كرّره في جلسته الأخيرة .

وفي شهر تشرين الاول ، رضي الامبراطور بان لا تؤخر الى ما وراء هذا التاريخ ، جلسات المجمع العامة . واذا بالاعضاء يستعدون للبحث في انبثاق الروح القدس .

ولكن كيف يتناولون هذا البحث ؟

وهو مزدوج : فيه قسم يتعلق بالعقيدة ، ويتناول المشكل : هل ينبثق الروح القدس من الآب وحده ، كما يزعم فوطيوس ، ام من الاب والابن ، كما تعلّم كنيسة رومة ؟

وفيه قسم يتعلّق بالنظام الكنسي وموضوعه : هل يُفرض إدخال مسألة الانبثاق في قانون الايمان على جميع المسيحيين ؟ وهل هذا الإدخال مشروع في حدّ نفسه ؟

وعلى هذا تألف في المجمع فئتان :

فئة قوامها بساريون وسكولاريوس مع جمهور اللاتين ، كان من رأيها ان يُخاض اولًا في أساس المشكل بتناول العقيدة .

وفئة ثانية تستند الى مرقس الافسسي ، وجينيستوس ، وفيتون ترمي الى البحث اولًا في شرعية الزيادة المذكورة على قانون الايمان .

وقد كان النجاح من نصيب هذه الفئة . وناهيك بما تدفق حول هـذا الموضوع من علوم كتابية ومجمعية ، ومقدرة في الجدل والنقاش ، ومرونة في تفريع المشاكل وتنويع القياسات ، مما لا يتخيّله المؤرخ على حقيقته الّا اذا رجع الى تفاصيل اعمال المجمع .

هم لاهوتيون يتشاحنون . وبصدد هذا المشكل النظامي البسيط ، يثيرون شتّى المواضيع المهمّة : كحقوق الحبر الأعظم في مادّة العقيدة ، والإضافة المشروعة وغير المشروعة ، والإضافة الجوهرية ، والعرضية الشارحة . . . وما الى ذلك من موضوع تطوُّر العقائد ، وموضوع الصريح والضمني .

أضف الى ذلك مـا لا يؤمن جانبه في المناقشات من شروح وتطويلات في الطريقة التي يجب اتباعها ، ومن تضجّر السامعين وتذمّرهم الصريح احيانًا بسبب اطالة بعض الخطبـاء ، او انحرافهم عن الموضوع ، او اهمالهم الردّ على براهين الخصم ، واذا امامك صورة لما تقود اليه المشاحنات الكلامية ، ولم يضبطها ضابط

في طريق الجدل الحقّ .

كانت الفلسفة الكلامية قد قربت من عهد انحطاطها ، فظهرت فيها شهوة اطالة الجدل حتى الشره الخطابي ، كما بدا في اربابها كثير من التعلّق ببعض التعابير والصور القياسية المتداولة في الحلقات اللاهوتية جيلًا عن جيل . حتى اذا انتقل المتناقشون من الخطب الطويلة الى المجادلات القصيرة المتتابعة تتابع السهام سُرّي عن الجميع واستراح اولئك المناظلون استراحة ابطال المصارعة بعد الشوط المتعب .

وكان اللاتين يظهرون اقدر من خصومهم في هذه المناظرات القصيرة واسرع في ردّ السهام ، بينا كان الروم يفوقون اللاتين في معرفة النصوص الكتابية ، وفي استعمال الدقائق الكلامية في الشرح والتفسير . وكثيرًا ما نعوا على اللاتين التجاءهم الى المجادلة . فيجيب هؤلاء بانها محكّ الحقيقة ، ولا طريقة سواها للفصل بين المشاكل .

اما اهم المناظلين في هذه المعارك الكلامية المتتابعة في آخر شهور السنة ١٤٣٨ ، فكان اندريه الرودسي من جهة اللاتين ، ومرقس الافسسي من جهة الروم . وكان الكردينال يوليانوس يعضد اسقف رودس ، والامبراطور يتدخل بنفسه فينتصر لاسقف افسس .

وكانت براهين الروم تدور في غالبها حول نصّ في مجمع افسس (وهو المجمع المسكوني الثالث) يمنع فيه ، تحت طائلة الحرم ، كل تغيير في قانون ايمان نيقية .

فيجتهد اللاتين ان يظهروا ، مستندين الى ظروف القرار نفسه والى تدريخ المجامع التالية ، ان النصّ يشير الى التغيير العقائدي لا الى تغيير تعبير او اضافته . وهكذا كان من الممكن ان يُضاف شرعيًا الى قانون الايمان النيقاوي تعبير : « والدة الإله » ، دون ان يعاكس نصّ المجمع الافسسي ، الذي كوّن شهادة ايمانية ضدّ نسطوريوس .

❁

طالت هذه المناظرات حتى ان بعض الروم اخذوا يفكرون بالرجوع الى بلادهم . وفي شهر كانون الاول ، بسبب انتشار وباء في فرّاري ، وبسبب

الصعوبات المالية الظاهرة في خزينة الدولة ، رأى الحبر الاعظم ان يقترح نقل المجمع الى فلورنسة . وكان غراندوقها قد عرض عليه شروطاً موافقة .

وفي ٢ كانون الثاني ، كان الامبراطور في جلسة عند البطريرك ، فطلب الى الاساقفة ان يذعنوا لاقتراح البابا بنقل المجمع ، ويلبّوا طلب اللاتين بمباشرة البحث في النقطة العقيدية من انبثاق الروح القدس . فأيد بساريون طلب الامبراطور ، وقبل الجمهور بالاقتراحين .

٥

في فلورنسة بدأت حقبة جديدة من تاريخ المجمع نراها افضل بكثير مما تقدّم سواء أكان بقيمة الخطباء أم بأهمية الموضوعات المطروقة .

وقد خلف اسقف رودس ، في الكلام عن اللاتين ، جان دي راغوز ، ذاك الذي تدعوه الوثائق الرئيس العام . اما من جهة الروم فظلّ مرقس الافسسي حامل لواء خطابتهم .

واما الموضوع المطروق فهو انبثاق الروح القدس . وهو موضوع يتطلّب بحثاً برأسه كي نفيه حقّه .

انا نكتفي بالاشارة الى اهمية هذه العقيدة في حياتنا المسيحية ، لانها تتعلّق بالسرّ الاساسي في ايماننا ، وهو سر الثالوث الاقدس . ومن ثمّ فلا يتهورنَّ احد من المسيحيين الى القول : لنترك للاهوتيين امر المشاحنة في هذه المشاكل ، ولنحيَ انجيلنا في حياتنا المسيحية !

وكيف تمكن الحياة المسيحية اذا فُصلت عن اساسها ، وهو حياة المسيح نفسه فينا ، بروح قدسه مبدأ النعم المافضة في نفوسنا ! وانّى يكون هذا ان لم يكن الروح القدس نفسه روح الابن متّخذاً من الابن كل قدرته المبرّرة وكل كيانه ، لانه ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب .

وهو سرّ الوحدة الالهية في الثالوث الاقدس . لان الوحدة نفسها يعترضها الخلل اذا ما اخذنا بالتمييز بين اقانيمها ، الّا التمييز الانبثاقي المحض . واننا لنتعرّض لهذا التمييز الخطير ، اذا جنحنا الى القول بان الروح القدس لا ينبثق من الابن .

وعليه فان مجمع فلورنسة اتم عمل مجمعي نيقية والقسطنطينية في اقرار عقيدة الثالوث الاقدس .

اخذ جان دي راغوز الدومنيكي نصوص الآباء اليونان فعرضها وشرحها في ترتيب واضح ، من القديس ابيفانيوس ، الى القديس اثناسيوس ، الى القديس غريغوريوس النيصي ، مبيّناً انهم ، وان لم يصرّحوا علناً بالانبثاق « من الابن »، فقد علّموا ما يقابل هذا القول ، باثباتهم ان الروح القدس يتناول حقًّا كيانه من الابن ، كما يتناول الابن كيانه من الآب (وان كانت الطريقة مختلفة)

وكان ان دخل نصّ منحول في مجموعة النصوص الابوية . هو نصّ مأخوذ من الكتاب الخامس من مؤلّف القديس باسيليوس في الردّ على اونونيوس . ومن المعروف انه ليس ثابتاً من آثار القديس باسيليوس ضدّ هـذا المبدع الّا الثلاثة الكتب الاولى . وعليه فلم يتردّد احد من الفريقين في رفض النصّ . على ان محاجةً جديدة نشأت بشأن نصّ آخر لا شك في صحة نسبته ، وهو مأخوذ من الكتاب الثالث للمؤلف نفسه . عرض اللاتين هذا النصّ مستندين اليه ، فردّه الروم بحجة انه لا يوجد في كثير من المخطوطات اليونانية للكتاب المذكور . فلم يصعب على الخطيب اللاتيني اظهار وجود النصّ في عدة مخطوطات يونانية قديمة جيء بهـا من القسطنطينية نفسها . وهو فوق ذلك ، مما يتطلبه المعنى الاجمالي في المقطع .

ولكن الخصوم لم يقتنعوا ، اول الامر ، فثارت عاصفة من المشاحنات سُمع فيها كثير من النعوت تتردّد بين الفريقين ، ولا تبعد كثيرًا عن صفات التزوير والتلفيق . ويُذكر بهذه المناسبة ، ان احد الخدم أُرسل ليحضر مخطوطة الى الجلسة . فدفعه الفضول في الطريق الى التفتيش في الموضع المذكور . ولمّا رأى النص المزعج لمعلّمه ، اراد ان يخلّصه منـه ، واذا به يُقبل على حكّ السطر المطلوب . على انه في سرعته حكّ الصفحة المقابلة . ولشدّ ما كان استغرابه وحيرته، عندما ادرك خطأه ، وهو يتسمّع في الجلسة فيرى الخطيب يستند الى تلك الحجة التي توهّم انه محاها وازالها من الوجود .

ويجب الإقرار ، وفقاً لشكرى الامبراطور ، ان تلك المناقشات العامة لم

تؤدّ الى نتيجة مقبولة ، إن من جهة البحث في العقيدة ، وان من جهة الجدل في شرعية الاضافة .

بيد ان الامبراطور استفاد من ايراد نصّ للقديس مكسيموس ، فتذرّع به واوقف تلك المناقشات .

اما النصّ فيقول: « اذا علّم الابوان اللاتينيان (اغوسطينوس وامبروسيوس) ان الروح القدس منبثق من الابن ، فهما لا يدّعيان ان الابن مبدأ الروح القدس الاولي . فليس الّا مبدأ اوّلي واحد للابن وللروح القدس . »

سمع الامبراطور هذا النصّ ، فصاح : ليقرّ اللاتين بصحة هذه الرسالة ونوقّع معهم وثيقة الاتفاق .

والحقّ انه كان في هذا النصّ نور جديد .

وكانت احدى صعوبات اليونان في قبول النصّ اللاتيني ناتجة من كلمة مبدأ (principe) التي كانوا يفهمونها دائماً بمعنى المبدأ الاولي ، وهو الينبوع الاصيل او المصدر الاولي لكل حياة دينية . وهذا الينبوع واحد أحد هو الآب

وهناك صعوبة ثانية تنتج من ان الروم كانوا ينسبون الى اللاتين القول بان الآب والابن مبدأان متميزان وبالتالي متعاونان في بثق الروح القدس

وكان من فضل ذاك النصّ انه وفّر للمتناقشين حلّاً يمكن التفاهم فيه والاتفاق عليه ، وتعبيراً يوضح تلك العقيدة المطلوب تحديدها .

فبدأت المفاوضات بشأن اقتراح الامبراطور . وكان عيد الفصح قريباً . فاوقفت الجلسات العامّة . وبدأت حقبة المجمع الاخيرة ، حقبة المداولات بين وفد الروم ، والبابا يعاونه مستشاروه .

وكان اول ما بُتّ بشأنه عقيدة انبثاق الروح القدس .

وفي الاجتماع الاول الذي عقده اعضاء الروم في جلسة خاصة ، ظهر من تقرير بساريون ، او رسالته الجامعة التي اشرنا اليها ، ان جميع المشاحنات السابقة لم تذهب عبثاً . لقد انار الحقّ هذه النفس القويمة ، فلخصت على افضل ما يمكن من الدقة والوضوح، في سبيل انارة اخوانها، جميع المشاكل والمناقشات والنتائج .

بقي الاتفاق على وضع النصّ . وهو ما قام به الفريقان بتؤدة وبطء .

ذلك ان اللاهوتيين اللاتين كانوا شديدي اليقظة والحذر ، والبابا نفسه ، الذي كان يبدو على كثير من التساهل في شتى الامور ، لم يكن ليتساهل بشيء في ما خصّ العقائد ، ولا ليتقدّم خطوة الّا بمعاونة اللاهوتيين . واخيرًا حصل الاتفاق . وكان الروم قد حاولوا ان يضعوا الى جنب تعبير اللاتين — « الروح القدس المنبثق من الآب والابن » — وبطريقة مساوية له تعبيرهم هم — « الروح القدس المنبثق من الآب بالابن » . فتلطّف اللاتين في اقصاء هذه الفكرة حذرًا من ان يظهر دور الابن الفعّال ، المعادل لدور الاب ، على شيء من الضعف . فاكتُفي بان يضاف الى تعبير اللاتين ، بشكل التصريح ، ان التعبير الذي استعمله الآباء والمعلّمون اليونان لا يرمي الّا الى ما يرمي اليه التعبير اللاتيني ، ويجب ان يفهم فيه دور الابن فعّالًا .

❁

نال الامبراطور هذه النتيجة فاعتبر عمله منتهياً . وكان قلقًا على عاصمته ، والترك يهدّدونها دائمًا ، فنفد صبره ، وحذر من شتاء ثانٍ يقضيه في ايطالية . فلم يبقَ له من همّ الا التفكير بالعودة . حتى انه رفض قبول الملخّص الذي ارسله اليه البابا ليعرضه على المناقشة وينهي به موضوع الاتحاد في النقاط الثلاث الباقية وهي : المطهر ، والفطير ، ورئاسة البابا .

وقد كان الامر غريباً من قبل الامبراطور الذي كثيرًا ما دفع اساقفته الى التعجيل في اقرار الاتحاد مهما كلّف الامر . والذي اوقف مرقس الافسسي وانطوان الهرقلي على طريق العودة ، واقام على ابواب المدينة حرّاساً يمنعون خروج الروم قبل انتهاء المجمع . هذا الامبراطور يهدّد اليوم بنقض كل شيء ويستعد للسفر العاجل على مرّتين .

في هذه الايام العصيبة ظهر الجلد الروماني في اوجين الرابع وصبره السمح باجلى مظهر ، لقد ساءه رفض الامبراطور لخلاصته ، فلم يتمكن من البقاء . ولكنه اعطى الكردينال يوليانوس كل السلطات ليعيد المياه الى مجاريها .

واذا باللاتين ينزلون على رغبات الروم في اساليب المناقشة .

وكان البابا تارة يستقبلهم في مقامه الخاص ، وطورًا يذهب بنفسه الى مقام

البطريرك المريض فيرنس الجلسة عنده .

وقد تجنب جان دي راغوز في محاضرته على رئاسة البابا ، ولاسيما حقه في دعاء المجمع ، وقبول جميع القضايا المستأنفة اليه ، كل تعبير يُشتمّ منهُ رغبة الردّ او المناقشة . وكذلك كان موقف جان تروكيادا في محاضرته على الفطير وكلمات التقديس .

اما البحث في النصوص الداعية الى المناقشة فكان يجري في لجان خاصة قليلة عدد الاعضاء . وهذه لجنة مؤلفة من اربعة لاتين واربعة روم تشتغل وحدها مدة ثلاث ساعات ، بينا كان البابا يستقبل في مقامه بدير الدومنيكان رؤساء الروم فيحادثهم بمختلف الشؤون ، ويدير عليهم المرطّبات واطباق الحلوى

وأخيرًا في ٢٧ حزيران أُلفت لجنة عُهد اليها بوضع نصّ الاتفاق ، الذي سيقرأ ويوقّع في التاسع والعشرين من الشهر نفسه ، عيد الرسولين بطرس وبولس .

ولكنّ المشاكل لم تنتهِ بعد . ومنذ الكلمات الاولى حصل خلاف جديد . يريد الروم ان يضعوا مع اسم البابا اسم الامبراطور . وبعد مداولات قليلة رضي البابا بهذا الشكل في مطلع الوثيقة :

« اوجين الاسقف، عبد عبيد الله ، تخليدًا للذكرى ، بموافقة ولدنا الحبيب بالمسيح ، جان باليولوغ امبراطور الروم الشهير . »

ووقّع وحده فوق الجميع على هذا الشكل :

« انا اوجين ، اسقف الكنيسة الكاثوليكية ، وقّعت محدّدًا . »

وبعد تواقيع الكرادلة ، وقع الامبراطور بهذا الشكل :

« انا جان باليولوغ ، المؤمن بالمسيح ، ملك وامبراطور الروم ، وقّعت . »

وهكذا تمّ الاتحاد . ولم يبق خارجاً عنه الّا مرقس الافسسي فلم يوقّع الوثيقة .

٥

تقدّم لنا ان ذكرنا باختصار ما كان من مصير هذا الاتحاد ، على اثر رجوع الاساقفة . وكان هؤلاء قد استفادوا باحتكاكهم باللاتين ، اكثر من سنة ، على الدرس والجدل والمناقشة ، تفاهماً متبادلًا قادهم الى اعتبار بعضهم بعضاً . اما

الغائبون فجروا على ميول الطبيعة البشرية في مثل هذه الاحوال، فقالوا ان الحاضرين اساؤوا صنعاً. ونفروا من مقررات المجمع. وقد يكون زاد في نفورهم طول مدته، ولأنهم لم يشتركوا في اعماله، وهذا من مظاهر الانانية البشرية كذلك.

فرفض المجمع البطاركةُ الثلاثة في الاسكندرية وانطاكية واورشليم. اما الامبراطور فظلّ اميناً على توقيعه، وعمل على انتخاب خلفٍ للبطريرك يوسف، أحد دعاة الاتحاد المعروفين، مترُوفانس دي سيزيك. ولكن بعد وفاة الامبراطور، كانت فكرة الاتحاد قد مُنيت بكثير من الإعراض والمماكسة، حتى ان اخاه وخليفته الامبراطور قسطنطين، لم يجرؤ على نشر قرار الاتحاد، على الرغم ما كان عليه الروم من حاجة الى معونة الغربيين.

بيد ان وثيقة الاتحاد التي وقعها الامبراطور وممثلو السلطات الرومية، لم تنقض قطّ رسمياً. اما ذاك المجمع القسطنطيني الذي يزعم بعض اعداء الاتحاد بانه نقض عمل فلورنسة، فلا وجود له الّا في مخيّلة هؤلاء الأعداء. وها ان افضل مؤرخي الارثوذكس، من امثال باسيليوس، لا يتردّدون في نفي وجوده.

واذاً فالنصُّ باقٍ في مضمونه العقائدي وثيقة الاتحاد الحقيقية.

فلتعمل الرغبات المخلصة المتزايدة يوماً عن يوم، والدروس الرامية الى التفاهم المتبادل، ولاسيما الصلوات المشتركة المستلهمة من المبدأ المسيحي الواحد، على اعادة هذا الاتحاد اعادةً نهائية.

هذا رجاؤنا جميعاً!

ذكرى المجمع الفلورنتيني (١٤٣٩–١٩٣٩)

رئاسة الحبر الروماني

بقلم الاب يوحنا كابيلو اليسوعي

بعد المناقشات الطويلة بشأن المطهر التي امتدت نحو شهرين ، تمّ الاتفاق على صيغة رضي بها الفريقان . وكان وباء الطاعون قد اخذ يتفشّى في فراري فانتقل المجمع الى فلورنسة . فتتابعت فيها المناقشات في قضايا الفطير ، وكلمات التقديس ، ورئاسة الحبر الروماني .

اما بشأن الفطير فلما كانت القضية ليست من العقائد في شيء ، بل من العادات الطقسية ، اسرع الروم واللاتين في الاتفاق تاركين لكل كنيسة حرّيتها المشروعة في هذا الاستعمال . وفي ١٢ حزيران ١٤٣٩ ، صرّح الروم : « منذ عهد الآباء ، نستعمل في كنيستنا الخبز المختمر ، وانتم تستعملون الخبز الفطير . وكلا الاستعمالين صالح . »

واما قضية كلمات التقديس فادقّ لانها تتعلّق بالعقيدة . وقد ادلى كل من الفريقين ببراهينه . حتى اذا انجلى الموضوع ، بعد الدرس ، صرحت لجنة الشرقيين ، المؤلفة من ستة اعضاء بينهم ازيدور الكيافي ، تصريحاً علنياً بحضرة البابا والامبراطور ، في ٢٦ حزيران بما يلي : « نحن مستعدّون للتصريح علناً باننا نحن ايضاً نؤمن بان التقديس يجري بمفعول كلمات المسيح وحدها . » ثم في جلسة ٥ تموز ، اعلن بساريون بكلمات اوفر صراحة ، وبلسان قومه : « انهم يشتركون جميعاً في عقيدة آباء الكنيسة ، ولاسيما معلّمهم الاكبر القديس يوحنا فم الذهب ، ويعترفون ان لكلمات يسوع المسيح مفعولية التقديس بكاملها . »

ولم يبقَ من ثمّ مجال لمتابعة الجدل .

على انه ، ان لم تُدخل هذه النقطة في مجموعة التحديدات ، فلأنّ الروم طلبوا صراحةً ان لا يُجابه الشرقيون بتعبير قد يرون فيه انهم قالوا بغير هذه العقيدة . فاجاب البابا هذا الطلب ، وصُرف النظر عن المسألة .

بقيت تلك القضية المهمّة التي كان يراها الجميع اقوى العقبات في سبيل الاتحاد . وهي قضية رئاسة الحبر الروماني ، القضية الفاصلة بين الكنيستين في نظر الجميع ، حتى اذا اُتفق عليها ، لم يبقَ في الواقع ما يقسم بين الفئتين .

وهو ما يستنتج من كلام غبطة البطريرك كريستوف الثاني ، بطريرك الاسكندرية الارثوذكسي ، في خطاب القاه بعد انتخابه ، لبضعة اشهر خلت ، فقال مشيرًا الى ان الاختلاف بين الكنيستين ينحصر في نظام الحكم « فالكنيسة الارثوذكسية التي تحكم نفسها طبقًا للنظام المجمعي ، اعرضت دائمًا عن النظام الملكي المتبع عند الكاثوليك . وهو الخلاف الوحيد الذي ولّد الانشقاق ولا يزال في اساس انفصال الكنيستين احداهما عن الاخرى » .

واننا لنوافق البطريرك على ان الخلاف المهمّ بين الكنيستين انما هو قضية الرئاسة الرومانية . وهو ما شغل اعضاء مجمع فلورنسة شغلًا مهمًا . فلنلخص اعمالهم في هذا الشأن :

كان موضوع المناقشات بين الروم واللاتين يتناول نقاطًا اربعاً : المطهر ، الفطير ، كلام التقديس ، رئاسة الحبر الأعظم . وقد تمّ الاتفاق على الثلاث الاولى ، كما قدّمنا .

وفي نهار الاربعاء ١٠ حزيران ، استقبل البابا موفدي الروم ، اساقفة كياث ، ونيقية ، وطرابيزندة ، ومتيلينة فقال لهم : « نحن الآن متفقون . ولم يبقَ الّا توضيح بعض نقاط . فاذا شئتم الموافقة على الموادّ التي ستُعرض عليكم ، تمّ الاتحاد بيننا . » وتليت المواد بعد ذلك . وكانت اولاها تطلب من الروم ان يقرّوا بان خليفة يسوع المسيح ، الحبر الاعظم ، يتمتّع بجميع ميزاته من حيث هو بابا .

فلاحظ الاساقفة الروم ان الامبراطور لم يسمح لهم بالجواب رسميًا . على انهم قالوا ، في اثناء المحادثة الوديّة ، انهم لا يرون مستندًا ثابتًا لهذا الطلب ،

وانهم لا يمكنهم ان يقرّوا للكنيسة الرومانية بحق زيادة شيء على قانون الايمان، او حذف شيء منه، دون مشاركة سائر البطاركة. وعليه فهما يكن من صوابية هذه الزيادة وسلامتها العقائدية، فانها تظلّ ملومة لأنها حصلت دون موافقة مجمع. ومن ثمّ وجب على الرومانيين ان يقرّوا بخطأهم، ويعدوا بعدم الرجوع اليه في المستقبل، فيغتفر لهم.

وفي المساء نفسه، ١٠ حزيران ١٤٣٩، انتشر نعي البطريرك يوسف. مات البطريرك الشيخ بعد ان ترك على طاولته، وصيّة اخيرة كتبها في اليوم نفسه، وترك فيها لابنائه اعترافاً ايمانياً صريحاً هو هذا:

عهد البطريرك يوسف الثاني

يوسف، برحمة الله، رئيس اساقفة القسطنطينية، رومة الجديدة، والبطريرك المسكوني، وقد وصلت الى منتهى حياتي وعلى وشك ان ادفع دين البشرية المشترك، اريد بنعمة الله، ان أعرض صراحةً بالخطّ لابنائي الايمان الذي اعتقده، وان اوقّعه. كلّ ما تعترف به وتعلّمه الكنيسة الكاثوليكية الرسولية، كنيسة سيدنا يسوع المسيح، القائمة في رومة القديمة، أُقرّ به انا ايضاً، واعلن على رؤوس الملأ بأني اوافق على كل ما فيه. واني اقرّ ايضاً بأب الآباء القديس، الحبر الاعظم، ممثل سيدنا يسوع المسيح، بابا رومة القديمة. واني اقرّ ايضاً بالمطهر.

ولبيان هذا اوقّع في ٩ حزيران ١٤٣٩، في السنة الثانية لعقد المجمع.

(Mansi 31[1007], Hardouin 9[403], Hefele - Leclercq 7[2], p. 1014 - 1015)

اقيم للفقيد الكبير جنازة حافلة ودُفن في فلورنسة ، في كنيسة سانتا-ماريا-نوڤيلّا . وتوبع عقد الجلسات منذ ١٢ حزيران .

وفي ١٦ حزيران ، بناء على طلب الامبراطور ، امر البابا جان دي راغوز بالقاء خطاب في موضوع الرئاسة ، برهن فيه ان التعابير المستعملة في خلاصة قضايا المجمع بشأن الرئاسة البابوية (وهي التعابير نفسها التي ضمّنتها براءة الاتحاد) مستندة جميعها الى نصوص الآباء والمجامع . وهذه هي :

« نحدّد ايضاً ان الكرسي الرسولي المقدّس ، والحبر الروماني ، هو خليفة القديس بطرس ، ونائب يسوع المسيح . وانه رأس الكنيسة جمعاء ، واب ومعلّم جميع المسيحيين . وان له الرئاسة على العالم كله . وانه لهذا الكرسي نفسه ، وللحبر الروماني ، أُعطيت ، بشخص زعيم الرسل ، السلطة التامّة لرعاية الكنيسة العامّة ، ودعوتها ، وادارتها ، وحكمها . »

وظنّ البابا ان الجميع يرضون بهذا التحديد .

اما الامبراطور فقد اعرض عن نصيحة اساقفته ، ورفض نصّ التحديد ، مهدّداً بالانسحاب ، طالباً الى البابا ان يأمر باعداد سفر الروم حالاً .

فتأثر البابا . وترك المجمع مكلّفاً الكردينال يوليانوس سيزاريني متابعة المفاوضات .

وفي ١٨ حزيران ، توجه المجمع الرومي بكامله ، ما عدا الامبراطور ، الى زيارة البابا . فأمر البابا بالقاء خطاب جديد في ميزات الرئاسة الرومانية . وكان اثنان من الكرادلة قد توجها ، ليلة ذاك اليوم ، الى الامبراطور حاملين ايضاحات بشأن بعض التعابير في التحديد السابق مبدّدين الشبهات التي عرضها بلسان بساريون . فنتج من ذلك مناظرة شائقة بين بساريون وجان دي راغوز .

وكان هذا قد اورد في الجلسة السابقة رسالات بابوية قبلتها المجامع العامّة بغاية التكريم والتمجيد ولاسيا مجمع خلقيدونية .

فاجاب بساريون ان هذا القبول من مظاهر الآداب التي لا تؤيد الرئاسة الرومانية بشيء . وليس لهذه الرئاسة ان تستند الى رسائل البابوات انفسهم ، بل الى القوانين المجمعية ، وهي تؤيدها وحدها .

فاظهر جان دي راغوز ان الرسائل البابوية لها قوة القوانين المجمعية نفسها . والبرهان ان المجامع العامة كانت تتخذها احياناً اساساً لمقرراتها العقائدية .

فسأل بسّاريون هل تعبّر الكلمات « ان البابا اب ومعلّم جميع المسيحيين » عن رئاسة شرفية او اكثر من ذلك كما يفيده التعبير « رأس الكنيسة » .

فاجاب خطيب اللاتين ان التعبير المذكور يفيد رئاسة حقّ وصلاحيــة . ثم اورد كلمات المسيح : « ارعَ خرافي ، ارعَ غنمي » واضاف ان هذه الرئاسة تتضمن ان الاساقفة المضطهَدين يمكنهم ان يستأنفوا دعاويهم الى البــابا ضدّ الامبراطور ، كما حصل لاثناسيوس وفم الذهب . وليس في هذا الحقّ تطاولٌ على حقوق الامبراطور . لأن هذه تُطبّق في المحيط الزمني والمدني . اما حقّ البابا ففي المحيط الكنسي والديني .

عند ذلك تدخّل الامبراطور الذي كان حاضراً الجلسة ، فسأل : « هل تتضمن سلطة البابا حقّ دعوة الكنيسة الى مجمع عام.» فاجاب جان دي راغوز بالايجاب وقال : ان يكن بعض الامبراطرة قد دعوا في ما مضى الى عقد المجامع العامة ، فانما قاموا بذلك بموافقة الكرسي الرسولي . او بناء على رغبته . ثم أيد قوله بالأحداث التاريخية . ولكن في سبيل ازالة تخوّف الامبراطور وموفدي البطاركة ، زاد الخطيب اللاتيني « ان نظام الكنيسة المتوحّد الرئاسة لا يمكنه ان يجحف بايّ حق ولا باية ميزة من حقوق سائر الكنائس وميزاتها.» على انه اوضح بجلاء وصراحة ان سلطة البابا لا تشبه سلطة اسقف او سلطة بطريرك . فان هذه محدودة بحدود المكان . اما سلطة خليفة بطرس ، فلها « حقّ مباشر على جميع المسيحيين.»

ويقول دورثاوس الميتليني ، وهو المؤرخ البيزنطي للمجمع ، ان الامبراطور ، بعد ان سمع هــذه الايضاحات ، أمر باحضار الكتب الخاصة بالموضوع للتفتيش فيها عن ميزات الكنائس وخصائصها .

وبعد ان تمّ هذا البحث اعلن الروم كتابةً بانهم مستعدّون لقبول ميزات الحبر الأعظم التي عيّنها اللاتين ، ما عدا اثنتين :

١ــ حق اقامة مجمع مسكوني ، دون مشاركة الامبراطور وسائر البطاركة .

٢ً – حق دعوة البطريرك شخصياً الى محكمة البابا ، اذا ما استؤنف الى المحكمة المذكورة حكم هذا البطريرك. وعلى البابا ، في هذه الحال ، ان يُرسل قضاةً موفدين من قبله الى بلاد البطريرك المذكور.

وفي اليوم الثاني ، ٢٢ حزيران ، اعلن اوجين الرابع بانه لا يمكنه التخلي عن ايّ حقّ من حقوق كنيسته . فلا حقّ الاستئناف اليه ، ولا حق دعوة المجامع المسكونية. وكلاهما ضروريّان. وما على البطاركة الّا الخضوع.

فكادت هذه الكلمات الصريحة في صرامتها تؤدي الى الانفصال . فقال الامبراطور: «أعدّوا الأهبة لرحيلنا.»

فتأثّر دعاة الاتحاد من الروم . واخـذ بساريون ، وايزيدور الكيافي ، ودوروثاوس ، مؤرّخنا ، يعدّدون الجهود والمساعي.

وكانت النتيجة ان البابا دعا الامبراطور في اليوم الثاني. وجرى الاتفاق على ان تؤلف لجنة قوامها ستة اعضاء من اللاتين وستة من الروم للمناقشة في الموضوع وعرض النتيجة على جمهور المجمع. ثم ان الشرقيين عقدوا اجتماعاً خاصاً في منزل الامبراطور فدوّنوا بالاجماع التصريح التالي : « بشأن سلطة البابا اننا نعترف انه الكاهن الأعظم ، والمدبّر ، وممثل يسوع المسيح وخليفته ، وراعي جميع المسيحيين ومعلّمهم ، وانه يقود ويحكم كنيسة الله ، دون ان تُمسّ امتيازات وحقوق بطاركة المشرق». ولم يشأ الروم ان يسلّموا بما فوق هذا التصريح. فطالت المناقشات الى اشتدادها. وظلّوا ثمانية ايام يتداولون في صيغة النصّ النهائي.

وفي ٢٨ حزيران اجتمع موفدو الروم واللاتين في كنيسة مار فرنسيس ووضعوا نصّ قرار الاتحاد . وعندما عرضوه على الامبراطور ، اشار هذا بان القرار عليه امّا ان يذكر اسمه في مطلع النصّ الى جنب اسم البابا ، وامّا ان يبقى غفلاً دون اسم . ثم انتقـد العبارة القائلة ان « البابا يحتفظ بالميزات التي حدّدها الكتاب المقدّس وتعابير القديسين » معترضاً بانه اذا كان احد القديسين قد كرّم البابا في احدى رسائله ناعتاً اياه ، على طريق الآداب والمجاملة ، بالقاب التمجيد ، فلا يجوز اعتبار هذه الألقاب ميزات حقيقية . وعليه فمن الضرورة ان يغيّر البابا هذا التعبير ، او يرجع الروم الى بلادهم.

فأسف البابا وارسل بعض الكرادلة الى الامبراطور حاملين الرضى بان يُضاف الى اسم البابا ، هذه الجملة «ومع موافقة الامبراطور والبطاركة.» ولكنه لم يشأ تغيير شيء في العبارة الثانية ، لأن رئاسة الحبر الأعظم لا يمكن ان تظهر بجلاء اوضح منها في آثار الآباء القديسين. وكان من قول سيزاريني في دفاعه عن هذا التعبير ان كل شيء حتى العقائد نفسها يجب ان تُحدد بالاستناد الى التعابير التي استعملها الآباء القديسون.

وقد اقترح الروم للمشكل المختلف عليه الصيغة التالية : « يحتفظ البابا بامتيازاته وفقاً للقوانين ، ولأقوال الآباء القديسين ، والكتاب المقدس ، ولاعمال المجامع » . ثم عرضوها على البابا. واخيراً تمّ الاتفاق على الصيغة الآتية لأنها اخصر: «. . . وفقاً لما هو مُتضمَّن ايضاً في اعمال المجامع المسكونية ، وفي القوانين المقدسة.»

فقبل الامبراطور بهذه الصيغة. وطلب ان يجتمع ، نهار الخميس في ٢ تموز ، الاثنا عشر عضواً عن الفريقين فيضعوا الوثيقة باليونانية واللاتينية. فيوقع اللاتين النصّ اللاتيني ويُمهر بخاتم البابا ؛ ويوقع الروم النصّ اليوناني ، ويمهره الامبراطور بخاتمه الذهبي.

ونهار الاحد ٥ تموز وقّع الروم في منزل الامبراطور (قصر بيروتي) بحضور ثلاثة اساقفة لاتين . وامتنع مرقس الافسسي عن التوقيع. وفي النهار نفسه وقّع اللاتين في مقام البابا (دير سانتا - ماريا - نوفيلا) بحضور عشرة شهود من الروم .

وقد ترجم النصّ من اللاتيني الى اليوناني تراڤرساري واعاد النظر فيه فاصلحه بساريون.

وفي السادس من تموز قرأ الكردينال سيزاريني في جلسة حافلة بكاتدرائية فلورنسة نصّ الاتفاق باللاتينية . وقرأه بساريون باليونانية.

فصرّح علناً اساقفة الروم واللاتين مع ممثلي الروس ، والإيبيريين ، والفلاشيين ، وموفدي امبراطور طرابيزندة ، بموافقتهم على القرار

وبعد ذلك ، قام البابا بنفسه ، يحتفل بقداس صارخ.

وهاكم ، في ما يلي ، نصّ الاتفاق بكامله في هذه الوثيقة المهمة التي تدون

تحديد المجمع المسكوني المنعقد في فراري — فلورنسة ، مؤيدة الى الأبد معتقدات الكنيسة للشرق والغرب :

قرار المجمع المسكوني المقدس في فلورنسة

اوجين الاسقف ، عبد عبيد الله ، تخليداً للذكرى ، بموافقة ولدنا الحبيب بالمسيح ، جان باليولوغ ، امبراطور الروم الشهير ، ومن يقوم مقام اخوتنا الاجلاء البطاركة ، وسائر الاساقفة ممثلي كنيسة الشرق .

لتبتهج السماوات ولتفرح الارض لان الحاجز الذي كان يفصل الكنيستين الشرقية والغربية قد سقط ، وأعيد السلام والاتفاق ! وذلك ان حجر الزاوية ، الذي هو المسيح ، جعل الكنيستين كنيسة واحدة ، جامعاً بصلة لا تنفصم من المحبة والسلام بين الجدارين ، وحافظاً اياهما بوثائق الوحدة الدائمة . بعد ليل متطاول من الحزن ، وبعد ظلام كثيف مزعج من انقسام طويل ، بدا للجميع نهار صافٍ من الاتحاد المنشود . لتفرح الكنيسة امنا ، اذ ترى ابناءها يرجعون الى الوحدة والسلام ، بعد ان طال انفصالهم بعضهم عن بعض . هي التي طالما ذرفت الدموع المرّة على انقسامهم ، لترفع الشكر الآن لله بفرح لا يوصف اذ تراهم في هذا الوفاق العجيب ! وليترنح جذلاً جميع مؤمني العالم ، وجميع من يحملون اسم المسيح ليبتهجوا مع امهم الكنيسة الكاثوليكية ! فها ان آباء الشرق والغرب ، بعد عهد طويل من الشقاق والانقسام ، جازوا الى

هذا المجمع المقدّس المسكوني، بملء الفرح والحماسة، معرّضين لجميع مخاطر البحر والبرّ، منتصرين على كل العقبات، مدفوعين بالرغبة في الاتحاد واعادة المحبة القديمة. فلم تخب آمالهم الشريفة. لانهم، على اثر البحوث الطويلة المجهدة، توصّلوا، بنعمة الروح القدس، الى هذا الاتحاد المقدّس المنشود. فمن يمكنه اذًا ان يرفع الى الله آيات شكر جديرة بهذه النعم؟ ومن يمكنه ألا يعجب بخيرات هذه الرحمة الفائقة؟ ومن هو ذو القلب الصخري الذي لا تلينه عظمة هذا السرّ الالهي؟ هو عمل الهي حقّ، لا أثر من آثار الضعف البشري. واذًا فليُقبَل بالجلال البالغ. وليُحيّ بالاناشيد الالهية! لك الحمد، لك المجد، لك الشكر، ايها المسيح، ينبوع الرحمات، انت الذي اوليت عروستك، كنيستك الكاثوليكية، هذا الخير العظيم، والذي اظهرت في ايامنا عجائب حبّك، ليَشيد الجميع بذكر عجائبك. حقًا ان الله اولانا عطيّة عظيمة الهبة، فرأينا بعيوننا ما عجز الكثيرون غيرنا عن رؤيته على رغم رغبتهم الحارّة. وذلك ان اللاتين والروم المجتمعين في هذا المجمع المسكوني بذلوا جهودهم كلها ليبحثوا، بين الشؤون المختلفة، بابلغ التدقيق، واعظم الاهتمام، قضية انبثاق الروح القدس الالهي. وبعد ان عرضوا شهادات الكتاب المقدّس، وعددًا وافرًا من نصوص المعلّمين القديسين في الشرق والغرب، وبعضهم يقولون ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن، والبعض الآخر من الآب بالابن، معبّرين جميعاً عن الفكرة نفسها بالكلمات المختلفة، أكّد الروم انهم بقولهم ان

الروح القدس ينبثق من الآب ، لا يفهمون نفي انبثاقه من الابن ، بل انه كان يظهر لهم ، على ما يقولون ، ان اللاتين يعلّمون ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن كانبثاقه من مبدأين ومن مصدرين ، ولهذا كانوا يمتنعون عن القول ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن . اما اللاتين فقد اعلنوا ، بضدّ هذا ، انهم بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن ، لا يقصدون عزل الآب ، كما لو لم يكن الينبوع والمبدأ الاصلي لكل الوهيـة في الابن والروح القدس ، ولا يزعمون ان الابن لا ينال من الآب ما به ينبثق منـه الروح القدس ، ولا يقرّون بمبدأين او مصدرين . بل انهم يؤكدون انـه ليس الّا مبدأ وحيد ، ومصدر واحـد للروح القدس ، وهو ما اعتقدوه دائمًا . ولما كان ينتج من كل هذا حقيقة واحدة ، اتفق الجميع اتفاقًا واحدًا ، وأيدوا بالاجماع هذا الاتحاد المقدّس الاثير عند الله . وعليه ، فاننا ، باسم الثالوث الاقدس ، الآب والابن والروح القدس ، وبموافقة هذا المجمع الفلورنتيني المسكوني المقدّس ، نحدّد انه على جميع المسيحيين ان يعتقدوا ويقبلوا ، ويعلّموا هذه الحقيقة الايمانية وهي ان الروح القدس هو سرمديًا من الآب والابن ، وانه يتخذ جوهره وكيانه من الآب والابن معاً ، كما من مبدأ واحد ومصدر واحد . ونعلن ان التعابير التي استعملها المعلمون والآباء ، مؤكدين ان الروح القدس ينبثق من الآب بالابن ، ليس لها معنى آخر ، بل انها تعني ، كما يقول الروم ، ان الابن هو ايضاً سبب ، وكما يقول اللاتين ، انه مبـدأ بقاء الروح القدس وذلك

كالآب نفسه. وبما ان كلّ ما للآب اعطاه لابنه الوحيد في ولادته ما عدا الابوية ، فقد نال الابن ابديًا من الآب ، الذي ولده منذ الازل ، ما به ينبثق منه الروح القدس . واننا نحدّد ، فوق هذا ، ان تعبير « الانبثاق » ، الذي يلخّص كل هذه العبارات ، زيد على قانون الايمان زيادة مشروعة معلّلة ، لايضاح الحقيقة ، وللضرورة الماسّة اذ ذاك . واننا نعلن ايضاً ان جسد يسوع المسيح حاضر حقيقةً في خبز الحنطة سواءٌ أكان فطيرًا ام خميرًا . وانه على الكهنة ان يستعملوا هذا او ذاك للتقديس ، كلّ وفقاً لطقس كنيسته شرقية او غربية . وفوق ذلك ، نعلن ان نفوس التائبين حقيقةً ، المائتين في محبة الله ، قبل ان يكفّروا بثمار التوبة اللائقة عن خطايا عملهم او اهمالهم ، تتطهّر بعد الموت بعذابات المطهر ؛ وانها تستفيد تخفيفاً من هذه العذابات بادعية المؤمنين الاحياء كذبيحة القداس ، والصلاة ، والاحسانات ، وغيرها من اعمال التقوى التي اعتاد المؤمنون ان يقوموا بها بعضهم من اجل البعض الآخر ، وفقاً لاوضاع الكنيسة . وان نفوس الذين ، بعد العماد ، لم يتلطّخوا باي دنس ؛ ونفوس الذين بعد ان ارتكبوا الخطايا ، تطهّروا منها امّا في هذه الحياة ، وامّا بعد انفصالهم عن الاجساد ، كما قيل اعلاه ، تُستقبل حالاً في السماء فتشاهد الله بوضوح كما هو في اقانيمه الثلاثة ؛ الّا ان بعضها يشاهده على اتمّ كمال من البعض الآخر وفقاً لدرجة الاستحقاق . وان نفوس مَن يموتون بحال الخطيئة المميتة ، او بحال الخطيئة الاصلية وحدها ، تنحدر حالاً الى الجحيم

لتعاقب فيها بعذابات مختلفة لا تتشابه . واننا نحدّد ايضاً ان الكرسي الرسولي المقدّس ، والحبر الروماني ، له الرئاسة على العالم ، باسره ، وان هذا الحبر الروماني هو خليفة الطوباوي بطرس ، هامة الرسل ، ونائب يسوع المسيح الحقّ ؛ رأس الكنيسة جميعها ، اب المسيحيين كلهم ومعلّمهم ؛ وان سيدنا يسوع المسيح اعطاه ، بشخص القديس بطرس ، السلطة التامة بان يرعى ويدبّر ويحكم كنيسته الجامعة ، وفقاً لما هو مُتضمَّن ايضاً في اعمال المجامع المسكونية ، وفي القوانين المقدّسة . والى هذا فاننا نجدّد نظام سائر البطاركة الاجلاء ، كما هو مقرّر في القوانين ؛ بنوع ان بطريرك القسطنطينية يكون الثاني بعد حبر رومة المقدّس ، وبطريرك الاسكندرية الثالث ، وبطريرك انطاكية الرابع ، وبطريرك اورشليم الخامس ، دون ان يُمسّ شيء من امتيازاتهم وحقوقهم .

أُعطي في فلورنسة ، في جلسة مجمعية عامة اقيمت احتفالياً في الكاتدرائية في سنة الف واربعمائة وتسع وثلاثين لتجسّد السيّد ، ليلة السابع من تموز ، وهي التاسعة لحبريتنا .

قد لا نغالي اذا قلنا انه لم يسبق ان دُرست القضايا العقائدية درساً اوفى من هذا الدرس ، ولا اكثر عمقاً ، ولا تُنوقشت تعابيرها جملةً جملةً ، كما جرى في هذا المجمع . ولم يسبق ان بُحث بادقّ من هذا البحث في عقيدة الآباء وتقاليدهم .

واننا نستخرج عبرة بالغة من هذه الجلسات الجليلة حيث رأينا العلم والتقوى ينحنيان على آلام الكنيسة فيفتشان لها عن الدواء . الثاني . وهي ان الطريقة الوحيدة في الوصول الى الاتفاق الحقّ هي ان نعرف الصعوبات بوضوح ، ونعمل على ازالتها بصراحة ومحبة . وفوق كل شيء ان نحب الحقيقة حباً صادقاً جريئاً .

من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

لغة الحضارة

العجلة او العربة

من الطف الابيات التي صحّت فيها التورية الى العجلة قول شمس الدين المزيّن الدمشقي في الامير سيف الدين منجك اليوسفي الناصري ، وقد عمّر المدارس والخوانق والخانات :

لنا مليك على البنيان مقتدر ، قلوبُ صُمّ الحصى من ذكره وَجِلة
ذو همّة ، لو ونى في امره جبل اتى به مسرعاً ، في الحال ، بالعجلة (١

وفي ايام العباسيين ، سنة ٢٤٢ (٨٥٦ م) « حجّ من البصرة ابرهيم بن مظهر الكاتب على عجلة تجرها الابل وتعجب الناس من ذلك ».(٢ وكانت العجل حينئذٍ تجرّ بالجمال والابقار والخيول والبغال والاكاديش والحُمُر . ولكن لما مرض احمد بن طولون في انطاكية وطلب مصر « ثقل عليه ركوب الدوابّ فعملت له عجلة كانت تجرّ بالرجال وُطّئت له »(٣ . وكان يُتأنق في فرش هذه العجل حسب اقدار الركبان وثرائهم . وربما كانت احياناً « كالقباب مغطّاة بالديباج ».(٤ واجمل ما كانت تُرى في المهرجانات والاعياد النصرانية . وعليها النسآء والفتيات والجواري في الحلي والحلل تختال بهنّ الشهاري الخراسانية والبغلات والحمر المصرية . حكى الحسن بن يعقوب قال : « صرت الى الرها

١) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٨ ، ص ٢٢٨
٢) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، طبعة مصر ، ٢ : ٣٠٧
٣) عيون الانبآء لابن ابي اصيبعة ٢ : ٨٤
٤) السلوك في اخبار دول الملوك للمقريزي . خزانة الفاتيكان ٧٥٩ ، ص ٦١

فبتْ بها وخرجت قبل عيد الصليب بيوم فاذا لدينا وجوه حسان من نصرانيات خرجن لعيدهنّ عليهن جيّد الثياب وفاخر الجوهر . واذا روائح المسك والعنبر قد طُيّب الهواء منها . وقد فُرش لهنّ على العجل وهو يُجرّ بهنّ» [1]

ويقال ايضاً للعجلة «عربة» وهي لفظة دخيلة. قال الخفاجي : «العربة بلغة اهل الجزيرة سفينة يعمل فيها رحى وسط الماء الجاري مثل دجلة يديرها شدة جريه . وهي مولدة فيما احسب . قاله في المعجم . وانا لا ادري هل المركب المسمى عربة أُخذ من هذا او هو غير عربي وهو الظاهر» . [2] قلنا : ان الكلمة من اصل تركي «أَرَبَة» بالهمز . ثم غلب التلفظ بها بالعين اي عربة ومنها استُحدث اسم «العربية» الذي يطلق اليوم في الاصطلاح الدارج على المراكب التي تساق بالخيول . وقد ذكرها النويري بلفظها التركي وتوسع قليلًا في تعريفها ووصفها فقال في اخبار سنة ٧٢١ (١٣٢١ م) :

« في هذه السنة في شوال توجهت الخوند طغاي المحمودية وهي احدى زوجتي السلطان (الملك الناصر محمد بن قلاوون) الى الحجاز الشريف وجُهزت أعظم جهاز سمع الناس بمثله . وجهز لها « أربات » ومحفّات . والاربات مقاعد من الخشب يجلس عليها . وهي مركبة على عجل امثال اتراس السواقي تجرّ بكديش واحد او جمل بختي . وتسرع في المرور غاية الاسراع . » [3]

وقال ايضاً في اخبار السنة التالية :

« سنة ٧٢٢ (١٣٢٢ م) كان وصول الآدر [4] السلطانية من الحجاز الشريف في يوم الثلثا ٢١ من المحرم . فركب السلطان لتلقيهم . ومدّ سماطاً . ثم طلعت الآدر السلطانية الى قلعة الجبل على « أربة » . وتقدمها نساء الامراء على

١) مسالك الابصار للعمري ، ص ٢٧٣

٢) شفاء الغليل ، ص ١٥٦

٣) مجلد من نهاية الادب . خزانة ليدن Arab. Gaul. 19b fo 12b

٤) الآدر جمع دار . ويكنى بها احتشاماً عن زوج السلطان كما يقال لها ايضاً « الجهة » و « الستر الرفيع »

« الأربات » والكوسات تضرب . والعصائب منشورة وكان يوماً مشهوداً »[١] .

وفي ايام المقريزي كان لفظ « العربة والعربات » قد راج على الالسنة والاقلام . ولذلك كتب في اخبار سنة ٧٢٠ (١٣٢٠ م) :

« فيها وصلت الستر الرفيع الخاتوني طلنباي . . . وخرج كريم الدين الكبير ومعه عربات ومحاتي وبغال . . . وركب في العربة الى الميدان . والحجاب تمشي قدام العربة » .[٢]

وكتب ايضاً في اخبار سنة ٧٢١ (١٣٢١ م) :

« قدمت تقادم نوّاب الشام برسم سفر الخاتون طلنباي . وعمل الامير ارغون النائب برسمها ثماني عربات كعادة بلاد الترك . ليُسافر فيها وجرّها الى الاسطبل . فأعجب بها السلطان . »[٣]

وفي هذه الاقوال شواهد صريحة على ان اصل العربة تركي . ولما تغلب احمد ابن قرمان على ابن عثمان اخذ منه في ما اخذ « سبعمائة عربة محملة » قال ابن تغري بردي في تفسير اللفظة : « والعربة هي التي تجرّ على الجمال والخيول والبقر . »[٤]

وممن نصّ ايضاً على عثمانية العربة ابن اياس ، وكتب في حوادث سنة ٩٢٢ (١٥١٦) :

« في يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجة اخرج السلطان الزردخانة الشريفة التي يخرجها صحبة العسكر . فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التي كان صنعها بسبب التجريدة . وكانت عدتها مائة عجلة وتسمى عند العثمانية عربة . وكل عربة منها يسحبها زوج ابقار وفيها مكحلة نحاس ترمي بالبندق الرصاص . »[٥]

١) نهاية الارب ، المجلد المذكور اعلاه f° 16b

٢) السلوك للمقريزي . خزانة الفاتيكان ٧٢٩ ، ص ٦١

٣) السلوك للمقريزي . خزانة الفاتيكان ٧٢٩ ، ص ٦١

٤) حوادث الدهور ، طبعة ليدن ، ٣ : ٦٨٤

٥) تاريخ ابن اياس ٣ : ٨٩

نزل بساحله

من مصطلحات الشام اليوم قولهم : « فلان نازل بساحل فلان » ، اذا كان آخذاً بانتقاصه وذكر مساوئه . ولا يُدرى متى تحوّل هذا التعبير عن معناه الأول . لانه كان يقال قبلاً : « نزل بساحله » ، اذا صفعه » . والى هذا المراد اشار القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في بيتين قالهما في فتح الملك الاشرف عكا سنة ٦٩٠ (١٢٩١ م) وهما :

يا بني الاصفر ، قد حلّ بكم   نقمة الله التي لا تنفصل
نزل الاشرف في ساحلكم ،   فابشروا منه بصفع متصل .(١

ومنه ايضاً لمحمد بن دانيال الحكيم في البرهان الفاحشة . وقد صُفع :

نزلوا سحرًا في ساحله   فرأى الاصباح جم ظُلما(٢

وقد صرّح بمعنى الصفع رضي الدين الحنبلي في كتابه « در الحبب في تاريخ أعيان حلب » . فقال في ترجمة محمد المنيّر شمس الدين الواسطي نزيل حلب : « كتب مرة رسالة وقال في ضمنها : قد خضت لجة بحر قد وقف بساحله . . . » فلما بلغ شيخنا العلامة الموصلي عابه على ذلك ، وانشد عنه :

ان المنيّر قد سما   اقرانه بفضائله
ارسوا ببحر علومه   وسينزلون بساحله

وفي البيت الاخير كما ترى ايهام لطيف . فان العوامّ يقولون : « نزل بساحل فلان ، اذا صفعه » .(٣

قلنا : والعلاقة ظاهرة بين الصفع ، وهو اذلال وامتهان ، ومعنى العيب والاغتياب . فلا بدع اذا تدرّج المعنى الاول الى الثاني .

١) السلوك للمقريزي . باريس ١٧٢٦ ، ص ٢٣٢
٢) فوات الوفيات للكتبي ٢ : ٢٤١
٣) خزانة باريس ٢١٤٠ ، ص ١٤٠–١٤١

الوفر بمعنى الثلج

هو ، فيما يظهر ، خاصٌ بلغة العراق . قال عبد الرزاق الفوطي :

« سنة ٦٦٧ (١٢٦٨/٩ م) سقط ببغداد وفر كثير كان سمكه في السطوح دون الشبر » .

« سنة ٦٧٤ (١٢٧٥ م) وقع ببغداد وفر كثير علا على الارض مقدار شبر . »[1]

وروى الدبيثي في ترجمة محيي الدين الشهرزوري قال : « من شعره ما انشدني ابو الفتوح محمد بن علي بن المبارك البغدادي قال انشدني نفسه ونحن جلوس بداره وكان الوفر ينزل :

ولما شاب رأس الدهر غيظاً ... لما قاساه من فقد الكرام
اقام يميط عنهُ الشيب غيظاً ... وينثر ما اماط على الانام[2]

البيع سيفَ الموانى

البيع في التجارة اليوم انواع تختلف باختلاف شروط التسليم فيها . واكثرها شيوعاً نوعان : الاول يتقاضى فيه البائع ثمن البضاعة وحدها بعد شحنها في اقرب ميناء اليه . ويتولى المشتري العناية بالنول والاستمهاد لحسابه الخاص . وهو المعروف بالفرنسية ببيع « فوب » fob وهي لفظة مختزلة من كلمتين franco bord . والثاني يضمن فيه البائع ايصال البضاعة الى الميناء الذي يعينه له المشتري . ويُشترط فيه ان يدفع المشتري ثمن البضاعة ونفقات نولها واستمهادها معاً ، بعد وصول اوراق الشحن اليه . ويطلق على هذا النوع من البيع لفظتان منحوتتان من الفرنسية والانكليزية . وهما « كاف » Caf ، و « سيف » cif . والاولى مقتضبة من اوائل ثلاث كلمات coût = قيمة . assurance = استمهاد .

1) الحوادث الجامعة ، طبعة بغداد ، ص ٣٦٢ و٣٨٤

2) ذيل تاريخ بغداد . باريس ١٩٣١ ، ص ١٢٥

fret = نول . والثانية من ثلاث كلمات ايضاً : fraight, insurance, coast والنحت الانكليزي اقرب الى الصيغة العربية . ومن غريب الاتفاق وجود ما يرادفه في اللغة مبنى ومعنى . وهو لفظ « سِيف » بمعنى ساحل البحر . قال عمر ابن ابي ربيعة :

هيهات من أَمَة الوهّاب منزلنا اذا حللنا بسِيف البحر من عدن (١

فاذا قيل اشترى فلان كذا سِيفَ الاسكندرية مثلاً ، كان المعنى تسليم ساحل الاسكندرية . وهو يقتضي ضمناً تسليف البائع نفقات البضاعة من نول واستعهاد . وهو مؤدّى اللفظة الانكليزية بالضبط والتمام .

ويكون النصب على الظرفية كما في قول عمر بن ابي ربيعة ايضاً :

عدمتُ اذاً وفري ، وفارقت مهجتي ، لئن لم أقِل قرنًا إن الله سلّما (٢

اي ان لم اقِل في قرن. وهو كما في ياقوت جبل مُطلّ على عرفات . ويقال له قرن المنازل[٣]. ومن هذا القبيل الآية : فبما اغويتني لأَقعدنّ لهم صراطك المستقيم . قال الزمخشري انتصابه على الظرف كقوله (كما عسل الطريقَ الثعلب) وشبهه الزجاج بقولهم ضرب زيد الظهر والبطن . اي على الظهر والبطن[٤] .

تفسير المراكب

التفسير ، كما هو معروف ، ايضاح الغامض . وقد استعير لتبيان ما في المراكب من السلع لاستيفاء حقوق بيت المال عليها . ولا يخفى ما بين المعنيين من الجامع والصلة . ولم يرد بهذا الاصطلاح في كتب اللغة . ويشبه ان يكون اول ما استعمل في الدواوين السلطانية . قال ابن الفرات الوزير علي لرجل كان يخدمه : « وردت البصرة سفن من بلاد الهند . فانحدِر اليها وفسِّرها. واقبض حق بيت المال وما كان من الرسم المستثنى . . . قال : فانحدرت وفسرت السفن وقبضت

١) الاغاني ، طبعة الدار ، ١ : ١١١

٢) الاغاني ، طبعة الدار ١ : ٢١٣

٣) معجم البلدان ٤ : ٧٢ (طبعة اوربة)

٤) الكشاف ١ : ٤٨١

حق بيت المال .»[1] وجاءت بهذا المعنى في رحلة ابن بطوطة . قال : « امروا صاحب المركب ان يلي عليهم تفسيرا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها » .[2] وما عتمت هذه اللفظة ان استعملت بمعنى « الكشف » « والقائمة » في لغة المولدين . بقطع النظر عن علاقتها بالملاحة . ولذلك قال ابن بطوطة نفسه في كلامه على الفنادق في الصين : « اذا كان بعد الصبح جاء الحاكم ومعه كاتبه . فدعا كل انسان باسمه . وكتب بها تفسيرا .»[3] اي ورقة باسمائهم . فيحسن من ثمّ بالكتاب اليوم ان يستعيدوا هذا الاصطلاح الذي اقرّه السلف ويختاروه في تعريب : note, relevé et inventaire .

الجُزازة والجُزاز

الجزازة كالقُصاصة كلّ ما جُزّ واقتطع من اديم او ورق ونحوهما . وشاعت في عهد الخلافة العباسية بمعنى الرقعة والقطعة من القرطاس . وهي التي تسميها العامة اليوم « الورقة الطيّارة » . قال ابن خلكان : « تعرض شاعر لابي دلف وقد قصد دار علي بن عيسى . وبيده جزازة . فناوله اياها فاذا فيها مكتوب . . . »[4] وقال ياقوت : « قرأت في جزازة عتيقة املاها ابو الهيذام ما صورته . . . »[5] وفسرها دوزي بانها الورقة التي يكتب فيها المسافر ما يشتهي اكله وشربه في الخان .[6] واغترّ في هـذا التفسير بما رواه الشريشي عن ابي ذرّ في شرح بيت الحريري من مقامته السابعة والعشرين المعروفة بالوبرية :

فاذا ما هبطت مصرًا فبيتي غرفة الخان ، والنديم جزازة

---

١) تاريخ بغداد لابن النجار . باريس ٢١٣١ ، ص ٣٥

٢) رحلته (مطبعة النيل) ٢ : ١٥٦

٣) رحلة ابن بطوطة (مطبعة النيل) ٢ : ١٥٧

٤) وفيات الاعيان ١ : ٤٢٦

٥) ارشاد الاريب ٦ : ٢١٠

6) *Supplément aux dictionnaires arabes*, II, p.191

ولا ندري كيف يكون الاكل والشرب في الخان نديماً . وانما اراد الحريري بالجزازة كل صحيفة فيها علم او ادب . يطالعها فتغنيه في خلوته عن النديم . وهو ما اشار اليه الفنجديهي في شرح هذا الموضع بقوله : « الجزازة قطعة كاغد عليها شيء مكتوب »[1] . وهو اولى تفسير يعوَّل عليه .

وجاء الجزاز بمعنى الاوراق المهملة والاجزاء والكراريس الساقطة من المجلدات مما يسمى اليوم باسم « الدشت » . ولا تخلو منها خزانة خاصة او عامة . وقد تكون بينها الصحف النادرة . والخطوط المنسوبة من التركات . حكى الجواليقي قال : « كنت اقرأ على ابي زكريا (التبريزي) شعر ابي دهبل حتى وصلت الى هذا البيت :

يجول وشاحاها ويغرب حجلها ويشبع منها وقف عاج ودملج

. . . وكان الابيوردي حاضراً . فلما قمت من عنده قال لي الابيوردي اتحب ان تعرف معنى هذا البيت . قلت نعم . فقال اتبعني . فمضيت معه الى بيته فاجلسني واخرج سلة فيها جزاز فجعل يطوفها الى ان اخرج ورقة فنظر فيها . . . »[2] وحدث ياقوت عن محمد بن احمد الانصاري الدسكري المعروف بابن البرقطي قال : بلغني عن رجل معلم في بعض محالّ بغداد ان عنده جزازاً كثيراً ورثه عن ابيه . فخيّل لي انه لا يخلو من شيء من الخطوط المنسوبة فمضيت اليه . . . وجلست افتش حتى وقع بيدي ورقة بخط ابن البواب »[3] . . . ومما رُوي عن ورع الرضي الشريف « انه اشترى اوراق جزاز من امرأة بخمسة دراهم . فوجد فيها جزءاً بخط ابن مقلة . فارسل اليها وقال وجدت في جزازك هذا . وقيمته خمسة دنانير . فان شئت الجزاز . وان شئت خمسة دنانير . فأبت وقالت بعتك ما في الجزاز . فلم يزل بها حتى اخذت الذهب »[4] .

---

١) شرح المقامات الحريرية للشريشي ٣ : ٥٧

٢) ارشاد الاريب ٦ : ٥٦

٣) ارشاد الاريب ٦ : ٢٦٦-٢٦٧

٤) الثالث عشر من عيون التواريخ للكتبي ١٥ f° Or. 3005 خزانة بريتش موزيوم

دفائن الخزائن

الجزء الثاني من
ترسّل الصاحب ضياء الدين بن الاثير

وقفنا على هذا الجزء في خزانة مخطوطات الجامعة الاميركية ببيروت مرقوماً فيها كما يلي MS 892.76 D 62 TA وهو مكتوب في ٢٣٠ صفحة. في كل صفحة تارة ١٥ سطرًا وتارة ١٤ . وبآخره خرم قليل. وفي اثنائه مواضع أكلتها الأرضة . والفاظ كشطت وغاب رسمها . وفي الورقة الاخيرة كتابة في ظهرها . منها :

« تم الجزء الثاني من ترسل المولى الصاحب ضيآء الدين رحمه الله . بتاريخ غرة صفر من سنة ست وخمسين وستمائة » (١٢٥٨ م) .

وتحت هذه الخاتمة سطر أُلصق عليه جزازة من الورق جاء في ذيلها :

« كتاب كتبه الى بعض غلمانه وقد ارسل على يده كتاباً فنزق في القُراة (كذا) والحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه »

ويظهر ان هذه الكتابة هي عنوان اول رسائل الجزء الثالث . فيكون الموجود من هذا الديوان الثاني فقط . ولا يعرف ايّ خزانة ام ايّ ارض اشتملت على الجزئين الاول والثالث.

وابن الاثير هذا هو نصرالله بن محمد مصنف كتابَي « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » ، « والوشي المرقوم في حل المنظوم » المطبوعين . وهو ثالث الاخوين : المؤرّخ صاحب « الكامل » ، والمحدّث مؤلف « النهاية في الحديث » . ولد سنة ٥٥٨ للهجرة ومات سنة ٦٣٧ (١١٦٣—١٢٣٩ م) وسمي الصاحب لانه ولي وزارة الملك الافضل نور الدين علي بن الملك الناصر صلاح الدين الايوبي . قيل ولم تحمد سياسته . فيكون ديوان رسائله هذا قد خُطّ بعد وفاته بتسع عشرة سنة فقط . وهو ما يزيد في قيمة الجزء الباقي منه فضلًا عما اتصف به من صحة الضبط في الغالب وحسن الخطّ .

وهذه الدواوين التي جمت فيها الكتابات السلطانية والرسائل الخاصة من اقلام الوزراء المنشئين . وبلغاء كتاب المصطلح الشريف ، هي احقّ بان تدعى سجلّات التاريخ . ويجب ان تعدّ من اصوله . وان يعوَّل عليها في تتمة اخباره ونقدها ومعارضتها ، لولا كثرة جعجعتها احياناً وقلة طحنها ، وضياع الحقيقة فيها بين قشور الفواصل والاسجاع ، وكون جانب منها تحت غشاء القوالب اللفظية . على ان ضياء الدين بن الاثير هو من اقل الكتاب فضولاً ، واوفرهم محصولاً . ورسائله ، وان كانت لا تخلو من المبالغة والاطناب ، شأنَ كل المترسلين في عصره ، فهي تتضمن بعض الشروح والاشارات الجديرة باسترعاء نظر المتأدب لتفهم الوقائع واستطلاع الاحوال التي قصر المؤرخون في وصفها او اغضوا عن ذكرها . وفي هذا الجزء منها طائفة سنورد مثالين منها اخترناهما لعلاقتهما بتاريخ دمشق . وهذه عناوين الكتب المروية في هذا الجزء ننقلها برمتها لفائدتها وطرافة قسم منها ليرجع الباحث اليها عند الحاجة :

١ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض اخوانه الصالحين وعباد الله المخلصين جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن موعظة وتخويفاً (ص ١–٤) .

٢ كتاب كتبه عن نفسه الى تاج الدين ابي اليمن زيد بن الحسن الكندي . رحمه الله تعالى . جواباً عن كتاب ورد اليه منه وهو يومئذ بمدينة الموصل وارسله اليه الى دمشق المحروسة (٤–٧) .

٣ رقعة كتبها عن نفسه الى بعض الفضلاء جواباً عن رقعة وردت منه اليه يلتمس شيئاً من رسائله . وكتب الجواب في ظهرها (٨–١٠) .

٤ رقعة اخرى في المعنى المتقدم المشار اليه . وهو جواب للجواب عن الرقعة الاولى (١١–١٣) .

٥ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاصدقاء ممن استجد مودته في سفرة سافرها معه . وهذا الكتاب اول كتاب صدر عنه اليه (١٣–١٥) .

٦ كتاب كتبه عن الامير الكبير مجاهد الدين قايماز زعيم الموصل الى صدر الدين شيخ الشيوخ ببغداد المحروسة . وكان قد سعى به اعداؤه الى الملك القاهر عز الدين مسعود ابن مودود صاحب الموصل حتى امسكه واودعه السجن . فنال دولته بذلك ضرر عظيم . واختبط امور الاجناد والرعايا . وخرج عن يده كثير من البلاد . واشرفت مملكته على الزوال . فعاد فاستدرك الفارط واطلقه من السجن وقلده امر المملكة على ما كان عليه واعظم . وكشف عن امره فعلم براءته مما رمي به . فانتقم من اعدائه الذين سعوا به ولم يطل لهم عمر . واصدر هذا الكتاب الى صدر الدين يبشره بخلاصه . لان صدر

الدين كان صديقه صداقة مرفوعة المقاصد . راسية القواعد . واخذ كتاب الديوان العزيز في امر خلاصه (١٥-٣٠) .

٧ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الفضلاء يتضمن شكوى الزمان في تقلب حالاته واتضاع ولاته (٣١-٣٣) .

٨ وكتب ايضاً توقيعاً عن السلطان الملك الافضل ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى باطلاق المكوس والمظالم بدمشق المحروسة عند مصيرها اليه (ص ٢٤-٢٦) (وليس فيه اقل ذكر وتفصيل لهذه المكوس) .

٩ كتاب كتبه عن السلطان الملك الافضل علي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن ايوب الى عمه السلطان الملك العادل ابي بكر بن ايوب بسبب نزغة نزغها بينهما الشيطان . وذلك في شهر رجب المبارك سنة تسع وتسعين وخمسمائة . وزعم الملك العادل ان الملك الافضل نقض عهده وباطن عليه جنده . فانتزع بسبب ذلك ما كان بيده من البلاد الفراتية . وكان جرى بينهما قبل ذلك وقائع وزعازع (٢٦-٣٣) .

١٠ وكتب ايضاً عن الملك الافضل علي الى الملك العادل ابي بكر كتاباً ثانياً في المعنى المشار اليه . لان الكتاب المتقدم لم يرجعه عما كان اصرّ عليه من حقده وبغيه عليه (٣٣-٣٨) .

١١ كتاب آخر ثالث كتبه عن الملك الافضل الى عمه الملك العادل وضمّنه شرح حاله مع عمه . وذاك انه لما توفي والده المولى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب . رحمه الله تعالى . ألقى بيده الى عمه المشار اليه الملك العادل دون جميع اخوته وبذل جهده في الاحسان اليه بنفسه وماله وعساكره . فكان ثمرة ذلك انه خدعه وانتزع دمشق منه . ثم قدّر الله بعد ذلك موت السلطان الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين صاحب مصر . وملّكها الافضل اخوه بعده . فجمع العساكر وخرج الى الشام فحصر عمه الملك العادل بمدينة دمشق مدة طويلة . ثم انقلب الامر عليه واستولى الملك العادل على مصر . وحلف لابن اخيه الملك الافضل على بلاد بارض الجزيرة . ثم نكث به .

وهذا اول الكتاب بعد البسملة :

« ندمتُ على امر مضى لم يُشِر به نصيح ولم يجمع قواه نظام

رب وثوق يعود الى الندم وتودد يدعو الى التهم وقد يدل الحلم على صاحبه ويطمع في جانبه ولولا ذلك لما استُلين عودي فعُجِم واستُضعِف ركني فهُدِم ولا اشكو ما اشكوه الا الى عمي وصنو ابي الذي نفره نفري وهو الذي قلب فُواتي على وتري وعلمني التظلم من الايام واراني ضوء النهار بعين الإظلام ولقد اضاع فيَّ احسانه وخالف في قطع رحمي سنة الله وكتابه وجعل ايامي منه كيوم البعث الذي يتناكر الناس في انسابه واسبابه هـذا وقد علم اني اتخذته ابًا ارجو برّه وولي الطيع امره وكنت له كنانة لا يطيش لها سهم ولا يؤسى منها كلم ولم ازل ساعياً في تقويم أوَدِه واعلاء كلمته ويده وانتهى بي الجد في ذلك الى اني شاققت بني ابي لمواصلته وقاطعتهم لمجاملته وشنقت في توخي إيثاره عصاهم وجعلت ادنام الي اقصاهم حتى اصبحت من

إخائهم عربياً وكنت تيمياً فصرت بكرياً هذا ولم يزل يحذرني منه النُصّاح ذوو السرائر وأولو الابصار والبصائر ويقولون هذا يخدعك بكيده ويجعلك حَبّاً لشبكة صيده فما فتحت لاقوالهم سمعا ولا وجدّت لها مني موقعا ولا وقعا بل مضيت على ما انا عليه من شدّ يدي بحبالاته وعقد قلبي على موالاته وقلت هذا العضد وهذا الساعد وهذا العم الذي اذا مضى الوالد فهو الوالد وقد بدأته بالاحسان الذي اظن انه اهله وليس جزاؤه عند الاحرار مثله ولم اعلم انه خمر بواديه ونصب لي اشراك عواديه فلشدّ ما نبذ ذمّة الرحم خلفه ظهرياً واتخذ العهد الذي في عنقه شيئاً فرياً وانقلب ما كان يظهره من طيب الاقوال الى ما كان يضمره من خبيث الافعال فلقيت منه ما لقي مجير ام عامر وكافأني مكافأة التمساح للطائر وانا راج ان يقاتله احساني الذي كفره وما شكره ونسيه متعمدًا وما ذكره فان للاحسان جنودًا ترمي من غير سهام وتقاتل في كل معترك بحسام وتؤيد بالنصر في كل مقام ومن شأنها انها تناضل ولا يشعر بنضالها وتسري فتحول بين الظلمة وآمالها فكم ثنت من يد قبضت على سيفها ودعت الى حيفها وما اسكت يد عنان جود وعنان جحود الا غدا صاحبها صريعا ولم يجد له من دون الله تبيعا فينبغي له ان يراجع نظره في ما اتاه وان يجتنب قول موسى لفتاه ولا يكن ممن اطمأنّ الى مسالمة زمانه واطراد امر سلطانه فانما الايام التي ما سالمت الا حاربت ولا واصلت الا جانبت ولا تأتي همومها الا من جهة افراحها كما لا تأتي ظلمة ليلها الا من مطلع صباحها ولطالما اعجزت قديرا وزعزعت سريرا واذهبت نسياً وملكاً كبيرا وعادًا وثمودًا واصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرا فان كان بعد العهد بهؤلاء انساه الاعتبار واوجب له الاغترار فلينظر الى من رآه عيانا وكان له سلطانا وهو اخوه الذي خفقت في الآفاق ذؤابة علَمه واستجابت الدول لامر سيفه وقلمه وكان اثبت منه ملكا واوسع بلادا واكثر اموالاً واولادا فمشت الايام على دولته فعفّت آثارها واخفتت اخبارها هذا ولم يزل يجيل قلوب الناس على الحسنى ويغرس فيها ما يرجو منه طيب المجنى وقد رأيت ما فعلوه في بنيه وما بالعهد من قدَم وما بالقوم عن ذلك الاحسان عمى ولا صمم فكيف ترجو انت مع الاساءة ان يتمسكوا بسببك او يحسنوا الخلافة بك في عقبك هيهات تلك اماني النفس المائنة ودواعي الهوى الخائنة وانا اعظك ان تكون ممن تولى فقطع رَحِمَه وخفر ذمّته فان كل دنيا ستنصرم وكل من حُكم عليه ظلماً سيحتكم « والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون » وقد بلغني انه يتوعدني بنكره ويوقد علي احناء صدره وانه تألّى على الله ليأخذنَّ على يدي وليلبسنّ يومي بغدي ويوشك انه اخذ من الله موثقاً بالخلود وتابعته الاقدار على اقتسار الجدود ومع اليوم غد وما من يد الا وله فوقها يد وكم بغى في هذه الارض من باغ ففوجئ بالتدفيع والتدمير وحالت الايام بينه وبين ما يقدّره من المقادير « وكأيّن من قرية امليتُ لها وهي ظالمة ثم اخذتها والي المصير » ولئن هزّتني منه هذه النبوة التي طاشت لها الاحلام وزلزلت فيها الاقدام فما خفّ لها الآن جَبَلي ولا تصرفتُ فيها بحولي ولا حِيَلي لكنني قد مددت الحبل معه

الى آخره وارتقبت ما تصير اليه عقبى مصايره وانا ادعوه الى كلمة سواء بيني وبينه ان يبغي احدنا على صاحبه ولا يذهب غير مذاهبه .

فان تدعُني للشر أسرِعْ وان تجب بصاحبي فقد ابقيت للصلح موضعا

ويعز علي ان اعضد شجرة انا من اصلها او أُقفر دارًا انا من اهلها فاكون في ذلك كمن جنت كفه على بنانها وعينه على انسانها واصبح اعق من غدا (بمن فدى ؟) بمهجته الدامية عن يده الرامية ولولا ذلك لأثرتُها فتنةً تخشن مراكبها وتمرّ غواربها وتقبح عواقبها وتكون دخانًا يغشى الناس منه عذاب اليم لا ينجو منه برّ ولا اثيم ولا بريٌ ولا سقيم ولكنني قد وضعت له جنبي وكففت عنه غربي وفارقت الاحداث وطلّقتها وزمت الدعة وتعلقتها فلا يبعثني على مراجعة الحال المطلّقة ولا يحملني بعد سبيل الطاعة على السُبُل المتفرقة فقد أُتيح للمضطرّ ان يركب كل محذور محظور ويستخلص حقه بالحق وبالزور ويدفع ظلامته بما وجد من السبيل وهو معذور واذا أُحرج الحليم خرج من شِيَمه واستُغضِيت النار من وارق سَلَمه فلا يظن ان قدحي لباريه ولا ليلي لساريه وقد طال ما بُلِي عزمي فوُجد نفاذًا في الاسداد طلاعًا للانجاد فما قدح الا اسرج ولا كوى الا انضج ولا جهّز بعثًا من بعوثه الا غنيت آراء عن جنود حُشّد او عصفت سيوف من رؤوس رُكّد وذلك العزم باقٍ لم يَنبُ ولم يَجبُن ومتى استطارت ناره ملأت الاقطار وسبقت الحذار وقلّبت القلوب والابصار والتجربة تنصحك ان (لا) توقظ شرا قد استدام مكانه ومنامه وكره الله والناس ان تتماد ايامه فان ذلك السيف في يد القاتل وربما زاد الآجل على ما تقدم من العاجل والسلام»

(ص ٣٩-٤٧)

وهذا الكتاب، مع بلاغة حجته وصدق كلمته ، وحدّة لهجته ، لم يدفع عن الافضل ظلم « صنو ابيه » فمضى العادل على غلوائه ، دون ان يثنيه عن متابعة الاساءة سابق احسان الافضل اليه . ولا بأس ان نذكّر انه لما مات صلاح الدين ، كان الملك العادل بالكرك . فامتنع فيه وأبى ان يحضر عند احد من اولاد اخيه . فارسل اليه الافضل غير مرة يستدعيه فوعد ولم يفعل . وهمّ صاحب الموصل اتابك عز الدين ، ان يسير الى بلاد العادل الجزرية لينتزعها منه فجهّز الافضل عسكرًا من عنده وارسل الى صاحبي حمص وحماة ، والى اخيه الملك الظاهر بحلب ، واعان عمه بما اجتمع من الجنود ، وانفذها معه ليمنع البلاد الجزرية . وفي سنة ١١٩٥/٥٩١ اراد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ان يحاصر دمشق فاستنجد الافضل بالعادل فسبقه الى دمشق . وكان الافضل لثقته به قد امر نوّابه ان يمكنوه من دخول القلعة . فما عتم الامراء ان انقلبوا على الافضل ،

وقرَّروا ان يسلّم دمشق لعمه ، ويملك بدلًا منها الديار المصرية . فارسل العادل سرًّا الى الملك العزيز ان يثبت في مكانه وضمن له منع الافضل . ولما عاد الافضل الى دمشق ، اقام العادل بمصر عند العزيز ، واقنعه بالخروج معه في السنة التالية وحصروا دمشق ودخلاها بخيانة من احد امراء دمشق استماله العادل ففتح لهم الباب الشرقي . وانفرد العادل بدمشق ، واعاد العزيز الى مصر ، وتسلّم جميع الاعمال من الافضل ، واعطاه قلعة صرخد فقط . وكان اخوه الظاهر غازي ، ملك حلب ، قد ارسل اليه قبلًا يقول له : أخرج عمنا من بيننا فانه لا يجيئ علينا منه خير . ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد . وانا اعرف به منك واقرب اليه . فانه عمي مثل ما هو عمك وانا زوج ابنته . ولو علمت انه يريد لنا خيرًا لكنت انا اولى به منك . فقال له الافضل : انت سيّئ الظن في كل احد . ايّ مصلحة لعمنا في ان يؤذينا ».[1]

ولما مات العزيز بمصر ، وخلفه الافضل عليها ، سعى العادل فملكها منه ايضًا سنة ٥٩٦ . قال صاحب الكامل الذي لخّصنا عنه ما سبق : « ومن اعجب ما رأيت من منافاة الطوالع انه لم يملك الافضل مملكة قطّ الا واخذها منه عمه العادل . فاول ذلك ان صلاح الدين اعطى ابنه الافضل حرّان والرها وميافارقين سنة ٥٨٦ فسار اليها . فلما وصل الى حلب ارسل ابوه الملك العادل بعده فردّه من حلب واخذ هذه البلاد منه . ثم ملك الافضل بعد وفاة ابيه مدينة دمشق . فاخذها منه . ثم ملك مصر بعد وفاة اخيه الملك العزيز . فاخذها منه ايضًا . ثم ملك صرخد فاخذها منه . واعجب من هذا انني رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة في بيعة صهيون ليس يوجد مثلها . فقال القس الذي بالبيعة : هذه كان قد اخذها الملك الافضل لينقلها الى دمشق . ثم ان العادل اخذها بعد ذلك من الافضل . طلبها منه فاخذها . وهذا غاية وهو من اعجب ما يحكى ».[2]

ومما تقدّم يتضح جليًّا ان الملك العادل كان ذا مكر وغدر وخديعة . لم يشكر احسان اخيه صلاح الدين ولم ينصفه في اولاده . بل ترقّب وفاته ليحقق

---

١) الكامل ٣ : ٤٨

٢) الكامل ٣ : ١٣٥

اطاعه في ملكه . فحوّله عنهم الى اهل بيته .. ولذلك فهو في نظر التاريخ المجرّد عن الهوى اجدر بان يدعى الملك « الظالم » .

١٢ وكتب الى السلطان الملك الافضل علي بن يوسف رحمه الله تعالى جنيه بعام جديد وذلك في سنة احدى وتسعين وخمسمائة (ص ٤٧-٤٨) .

١٣ كتاب كتبه عن نفسه الى مخدومه الملك الافضل ابي الحسن علي بن يوسف وقد سيّره رسولًا الى صاحب الروم من حصن سيساط وذلك في سنة ثمان وستمائة فكتبه اليه من بعض الطريق وكان الزمان شتاء يصف البرد وغيره (٤٨-٥٢)

١٤ كتاب كتبه عن السلطان الملك الافضل نور الدين ابي الحسن علي بن يوسف الى الملك العادل نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل رحمه الله . يسلّيه عن هزيمة هزمها في مصافقة صافقها (كذا) . وذلك يوم السبت تاسع عشر شهر شوال من سنة ستمائة . وسبب ذلك انه خرج الى نصيبين وحصر قلعتها واشرف على اخذها وهي يومئذ لابن عمه الملك المنصور قطب الدين ابن اتابك صاحب سنجار . ثم عاد عنها بغير سبب ولا مزعج الا لامر يريده الله . فاستنجد صاحبها الملوك المجاورين كصاحب جزيرة عمر .. وصاحب دارا . وصاحب ماردين . وصاحب آمد وديار بكر . ونزلوا نصيبين بالجملة الكبيرة . وطلب صاحب نصيبين من صاحب الموصل المصافّ فاجابه اليه . واتفق ان يكون بين نصيبين والموصل على قرية تعرف ببوشزّى . فاجتمع عساكر صاحب نصيبين . ونجده كلهم عليها وسبقوا الماء وملكوه . واسرى اليهم نور الدين من الموصل فاخذ ثلاث مراحل في مرحلة واحدة إدلالًا بقوة عسكره . فحين وصل ونزل لم يلبث خصومه ان ركبوا وطلّبوا وقصدوه . فلم يجد بدًّا من لقائهم فلم يثبت لهم عسكره لتعبهم وضعفهم . فكان ذلك سبب الهزيمة (٥٢-٦٠) .

١٥ كتاب كتبه عن نفسه الى القاضي الامام تاج الدين ابي الفضل احمد بن علي السميرمي قاضي مدينة ملطية . وكان بينهما من الود شيء عظيم . وهو جواب كتاب ورد منه يخبره بمرض لحقه وعافية تداركه الله بها . فصدر هذا الكتاب يتضمن الهناء بالبرء . ولم يكن بلغه حديث المرض حتى سمع خبر العافية (٦٠-٦٣) .

١٦ كتاب كتبه عن نفسه الى الصاحب الوزير صفي الدين ابي عبدالله محمد بن شكر وزير الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن أيوب شفاعة في حق الشيخ الامين زكي الدين ابي عبدالله بن سلامة الرّقي وهو من مشاهير التجار الدمشقيين (٦٣-٦٧) .

١٧ كتاب كتبه عن نفسه الى الصاحب بهاء الدين بن شدّاد قاضي قضاة حلب واعمالها . وكانت الكتب انقطعت بينهما (٦٧-٦٩) .

١٨ كتاب كتبه عن السلطان الملك الافضل نور الدين ابي الحسن علي بن يوسف بن أيوب الى اخيه السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف صاحب حلب حرسها الله تعالى . عناية بالصدر الاجل ظهير الدين ابن الدامغاني الذي كان ابوه قاضي القضاة ببغداد وسائر العراق . وقد

نبا به الزمان وخرج من بغداد مسترزقاً (٦٩-٧٣) .

١٩ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان جواباً عن كتاب ورد منه سنة اثنتين وستائة (٧٣-٧٦) .

٢٠ كتاب كتبه عن نفسه الى السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف صاحب حلب حرسها الله تعالى . يتضمن الشفاعة في امر شخص من العمال بديوان حلب . وارسله اليه من حصن سمياط . وذلك في سنة ثلاث وستائة (٧٦-٧٩) .

٢١ كتاب كتبه الى الصاحب بهاء الدين ابي الحجاج يوسف بن رافع بن تميم قاضي القضاة بالشام عن نفسه . يتضمن العناية ببعض الفقراء . كان مؤذناً واحب الاشتغال بالعلم وسأل كتب هذا الكتاب اليه (٧٩-٨٣) .

٢٢ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان (٨٣-٨٤) .

٢٣ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان . وكانت المكاتبة انقطعت بينهما مدة يسيرة . وسيّره اليه من حصن سمياط وقد عرَّض فيه بشكوى الزمان (٨٤-٨٧) .

٢٤ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان . وقد وصله عتبه لانقطاع كتبه عنه . فاصدر هذا الكتاب متنذراً عن الانقطاع والبطء (٨٧-٨٨) .

٢٥ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض اصدقائه بالموصل . وكان فارقه وسار الى خدمة السلطان الملك الافضل نور الدين علي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب بحصن سمياط . فوصل المشار اليه رسولاً الى خدمته من حلب . ثم عاد الى الموصل . وهذا الكتاب جواب عن كتاب وصل منه بعد عوده (٨٩-٩٣) .

٢٦ كتاب كتبه عن السلطان الملك الافضل علي بن يوسف الى اخيه الملك الظاهر غازي بن يوسف صاحب حلب المحروسة بسبب الشفاعة في امر شخص من عمال الديوان السلطاني بحلب المحروسة (٩٣-٩٦) .

٢٧ كتاب استملاه منه الامير الجليل مظفر الدين سنقر امير الحاج العراقي الامامي الناصري . وذلك انه لقيه بمدينة حلب في سنة سبع وستائة . وكان قد أبِق من خدمة الديوان العزيز الى الشام . وكان سبب إباقه ان الوزير بالحضرة الشريفة قصده قصداً اراد فيه هلاكه . فلم يمكنه المقام على ذلك فهرب . فلما عزل الوزير وتولى غيره اصدر عنه هذا الكتاب (٩٦-١٠٣) .

٢٨ كتاب آخر في المعنى ايضا . كتبه عن لسانه الى المحروسة ببغداد (١٠٣-١٠٦) .

٢٩ كتاب كتبه عن السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف بن ايوب الى الديوان العزيز المقدس النبوي عظّمه الله تعالى . جواباً عن كتاب ورد منه وقد ارسل اليه سراويل الفتوّة (١٠٦-١١١) .

٣٠ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان . جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن الاستعطاف على من النى صداقته (١١١ - ١١٥)

٣١ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض اصحابه المعاشرين من اهل مصر . يقال له مؤيد الدين بن

الجيهاني . وكان مغربي الاصل مصري المولد . وعنده جزء كبير من الخلاعة . فحج المؤيد الى بيت الله الحرام . وجاور بمكة سنين . ثم وصل بعد ذلك الى مدينة حلب المحروسة . وكان قبل الحج يعشق صبياً اسمه عبد القادر . وشُهر به . فعرض بذكره في الكتاب (١١٥ – ١٢١) .

٣٢ كتاب كتبه الى صديق له من اخوانه الصادقين يعزّيه بينت له توفيت (١٢١ – ١٢٤) .

٣٣ كتاب كتبه عن المولى السلطان الملك الظاهر غياث الدنيا والدين غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب رحمهم الله تعالى . الى الديوان العزيز النبوي ببغداد . جواباً عن كتاب ورد منه مبشّراً في سنة ثمان وستمائة عن الطائفة الاسماعيلية انها اسلمت بحصون ألَموت من بلاد العجم . وهم الحاكمون على الحصون الذين بالشام منهم بجبل السمّاق (١٢٤ – ١٣٠) .

٣٤ كتاب كتبه الى بعض الاخوان ليصف فيه مستنزهاً حضر فيه في بستان واخوان . ومكان وامكان . وكان ذلك في زمن الربيع . وقد ذكر ذلك . ويصف الشطرنج الذي لعب الجماعة به (١٣٠ – ١٣٨) .

٣٥ كتاب كتبه الى بعض الاخوان جواباً عن كتاب ورد منه . وقد ضمّنه ذكر المشيب (١٣٨ – ١٤٣) .

٣٦ كتاب كتبه الى بعض الناس يتضمن الهناء بشهر رمضان على حكم التهكم والاستهزاء (١٤٣ – ١٤٥) .

٣٧ كتاب كتبه عن نفسه الى السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف صاحب حلب . عناية ببعض ارباب البيوت كانت نعم الله عليه جمة فاذهبها الدهر (١٤٥–١٤٩) .

٣٨ كتاب كتبه الى بعض الاخوان . جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن استصلاح مودة (١٤٩ – ١٥٢) .

٣٩ كتاب كتبه تقليداً بولاية مدينة دمشق المحروسة من ديوان السلطان الملك الافضل نور الدين ابي الحسن علي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمهما الله تعالى . وذلك في سنة تسع وثمانين وخمسمائة (١٥٢ – ١٦٨) .

ولهذا التقليد السلطاني مكانة سنيّة بين سجلّات دمشق لما ورد فيه من التنبيه على ولع اقوام من سكانها بشرب الخمر . وتناول الرشوة بين عمّال الديوان . وخصوصاً لما تضمّنه من الوصية والرفق باهل الذمّة . ولذلك نقتطف منه الفصول الآتية لفائدتها الجلّي في تاريخ الدولة الايوبية . ودلالتها على بعض الاخلاق البلدية :

« من المهم عندنا حدّ الخمر . فان الناس قد تمافتوا على شربها وإدمانها وجاهروا في اقتنائها وعصيانها ولم يردعهم الحد عليها عن تورد مكانها ونحن نأمرك ان تقتلع شرها من اصله

وتسدّ على شيطانها ابواب سُبله ولا يتم ذلك الا بان تجتهد في منع حلّها وتحريم حِلّها وإراقة زقاقها ودنانها واستهلاك الدوابّ الحاملة لها باستهلاك اثمانها وان تتعهد قيناتها بالنفي والاشهار وهتك الاستار وتُنحي على آلاتها بقطع الاوتار وتكسر كل ما كان من دفّ او مزمار واستَعِنْ على امرك هذا بكل محتسب يتولى الامر بالمعروف وبالعلماء من رجال الله الذين ينظرون بنوره من وراء السجوف ويسلون له لا لامر مرجوّ ولا لامر مخوف ونرجو حينئذ ان يزول هذا الداء وان كان عضالا واذا نظر الله في امرنا في صدق النية كفى المؤمنين قتالا .

« ومن الرعية الذين تحت يدك اهل الذمة . وهم قوم سكنوا بين اظهر المسلمين سكنى الاذلال وبذلوا الجزية فعصموا بها مباح الدماء والاموال فعليك ان تلقي عليهم ظل المدلة وتنزلهم حيث انزلهم الله ورسوله من المنزلة وان تحفظ كلّا منهم في نفسه وعرضه ولا تحمّله ثقلًا يخفّ عليه حمل بعضه وان تحفظ عليه عهده من النقض الا في سبب يحكم بنقضه ومن احسان السيرة فيهم الّا تطلب الجزية من راهب انقطع في صومعته ولا من شيخ حال الضعف بينه وبين الانتفاع به كما حال بينه وبين منفعته وهذا المقدار من هذا الوجه قد بورك في ديناره ودرهمه وخير ما صرفه المرء المسلم في ملبسه ومطعمه فليفرّق في الصدقة التي تريده طيبا ولا تجعل له في الحسنات مثلًا ولا ضريبا » (ص ١٦١ – ١٦٢) .

وههنا كبيرة هي من اعظم الكبائر وقد فشت في الناس حتى صارت صغيرة من الصغائر وذاك ان ولاة السوء قد ألِفوا تناول الرشوة التي تغير حكما وتختم على القلوب ختما وسمّاها الله سُحتًا واثما وانت ينهك عنها دينك الذي هو عصمة امرك وعلو نفسك الذي يقضي بعلو قدرك ولكن ربما استزل الهوى بعض اصحابك فملأ بها عينه وحال بين الحق وبينه فأحصِ على هؤلاء الانفاس عددا واسلك بين ايديهم ومن خلفهم رصدا وكن كالطائر الحَذِر الذي يظن كل شيء حجرا ويدا (ص ١٦٤) .

وتعليقًا على هذا التقليد الذي يجب ان يُعدّ من حسنات الملك الافضل وفضائله ، وزيادة في الشرح والبيان ، ننقل هنا ، على سبيل التأييد والتمثيل ، بعض ما وقفنا عليه من اخبار الخمر والمسكرات بدمشق . وقد اغضى عن هذا الداء العضال كثير من الملوك والحكام . وادخله بعضهم في جملة ما يُضمَّن في الديوان من الفواحش والمنكرات . حتى زعم سبط ابن الجوزي ان الحاصل من رسوم الخمر والخواطي والمكوس والمظالم ، في زمن الملك العادل سيف الدين ، بلغ مئة الف دينار[1] . ولا يخفى ما في ذلك من المجازفة والتهويل . ولما ابطل العادل ، سنة ٦١٢/١٢١٥ ، ضمانة الخمر والقيان « كان الذين يريدون شرب

1) ذيل الروضتين لابي شامة . خزانة باريس ٥٨٥٢ ص ١٣٠

الخمر يتكلفون الخروج الى ضياع جبل سنير (القلمون) في صيدنايا ومعربا ونحوها.[1] وكان واليه المعتمد «اقام رجالًا على عقاب قاسيون وجبل الثلج وحوالي دمشق بالجامكية والجراية يحرّمون احدًا يدخل دمشق بمسكر. فكان اهل الفساد يتحيّلون ويجعلون زقاق الخمر في الطبول. ويدخلون بها الى دمشق فمنع ذلك».[2] ولما خلف العادل ابنه الملك المعظّم ردّ المكوس والخمور وما كان ابطله ابوه واعتذر بقلة المال ودفع الافرنج.[3]

وفي سنة ٦٨٠/١٢٨١ ضُمِّن الخمر والزنا بدمشق وجعل عليه ديوان ومُشِدّ. وسمي هذا الديوان «الجهة المفردة». وضُمِّنت في كل سنة بسبع مئة الف درهم، وتزايد فيها الضُمّان حتى بلغت الفي الف درهم في كل سنة. فقام بابطال ذلك جماعة من العلماء والصلحاء.[4]

وفي سنة ٦٩٩/١٣٠٠ ضمّن قبجق نائب دمشق «الخمارات ومواضع الزنا من الخانات وغيرها. وجعلت دار ابن جرادة خارج باب توما خمارة وخانة ايضاً وصار له في كل يوم الف درهم».[5]

وفي سنة ٧٤٤/١٣٤٣ «قدم الخبر (لمصر) بكثرة الفساد بدمشق والمجاهرة بالخمور وانواع الفسوق. وقلة حرمة نائبها الامير طقز دمر».[6]

وفي سنة ٧٤٦/١٣٤٥ «ضرب النائب واليَ البرّ نجم الدين بن الزيبق وعزله عن الولاية. وكتب عليه محضرًا ان له خانًا يبيع فيه الخمر على جاهه».[7]

وفي سنة ٧٩٨/١٣٩٥ «أخبر قاضي القضاة ان خانًا بالقرب من قبّة الشحم

---

١) ذيل الروضتين لابي شامة، ص ٩٧

٢) ذيل الروضتين لابي شامة، ص ١٣٠

٣) ذيل الروضتين لابي شامة، ص ١٣٢

٤) البداية والنهاية لابن كثير. باريس ١٥١٦، ص ١٢١؛ ونهاية الادب للنويري. باريس ١٥٧٨، ص ١٢٣

٥) البداية والنهاية لابن كثير. باريس ١٥١٦ ص ١٧٣

٦) السلوك للمقريزي خزانة الفاتيكان ٧٥٩، ص ١٤٤

٧) ذيل ابن قاضي شهبة. باريس ١٥٩٨، ص ٧٣

(مأذنة الشحم اليوم) فيه خمور كثيرة . ويباع فيه الخمر جهاراً ... فاقتلعوا الخوابي وكانت مدفونة في الارض مملوءة خمراً... وكلّم النائب الحاجب كلاماً غليظاً . ونسبه الى حماية الخمور وغير ذلك . وسبّه وشتمه».[1]

وفي سنة ١٣٩٨/٨٠٠ «اراق النائب خموراً كثيرة ظفروا بها . واردة في الليل نحو مئتي حمل ... وتواقعوا عند المزّة . واخذوا الخمر . وكانت فيما يقال لامير يقال له يَلْبُغا الاشقتمري مقدم الف».[2]

وهذه الاخلاق والعادات لم تنفرد بها دمشق ومدائن الشام . بل كان منها وقتئذٍ بمصر ما هو اقبح .

٤٠ كتاب كتبه الى اخيه مجد الدين ابي السعادات تغمده الله برحمته يعزيه بسقط (١٦٩–١٧١).

٤١ كتاب كتبه الى بعض الاصدقاء بالموصل من مدينة وكلّفه ان يطلب له نسخة الكتاب الذي كتبه شمس الدين علي ابن عمه رحمهما الله عن السلطان الملك القاهر عزالدين مسعود صاحب الموصل الى ديوان الخلافة المقدسة المعظمة الامامية الناصرية ببغداد شرفها الله تعالى . في التعزية بالامير الكبير عدة الدنيا والدين محمد بن مولانا الامام الناصر لدين الله امير المؤمنين . وهو حينئذ ولي العهد . وكانت وفاته في سنة اثنتي عشرة وستمائة . وهذا الكتاب كتبه يداعب به ابن عمه الكاتب المشار اليه . وهذا الرجل المكتوب اليه هذا الكتاب هو رجل تاجر . وله معصرة بالموصل . وهو يتردد الى مجلس القاضي . وقد عرض بذلك في آخر كتابه (١٧٤ – ١٨١) .

٤٣ كتاب كتبه الى بعض العظماء يشفع به عنده في صاحب كان له فغضب عليه (١٨٢–١٨٥) .

٤٤ كتاب كتبه الى صديق له بنصيبين . وعرّض فيه بذكر وخمها . ويذكر الورد ايضاً . فانها معروفة به (١٨٦ – ١٨٨) .

٤٥ كتاب كتبه الى بعض الاخوان . جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن شكوى الزمان وخيانة الاخوان (١٨٨ – ١٩٤) .

٤٦ كتاب كتبه الى الامير الكبير ناصرالدين احمد . والى اخيه الامير الاجل علاء الدين محمود ابن الامير الكبير مجاهد الدين شفاعةً في الاجل الكبير فخر الدين ابي العز بن الاثير العمراني رحمهم الله . وذلك لان فخر الدين ادّان من الامير علاء الدين ديناً . وتأخر وفاؤه عن الشرط المقرر والامد المقدر فتقاضاه ثم قاضاه وحبسه (١٩٤–٢٠٠) .

٤٧ وكتب الى الامير سيف الدين ابي عبد الله بن قبرك . وهو من الامراء الدمشقيين . وكانا

---

١) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٩ ، ص ١١٢ – ١١٣

٢) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٩، ص ١٢١

كلاما بدمشق المحروسة وكانا متلازمين لانه كان من اكبر اصدقائه . فمضت ايام لم يلقه فيها . وقد عرّض بالرقعة بذكر صاحبه نجم الدين بن الجزري (٢٠٠-٢٠٣)

٤٨ رقعة كتبها اليه يشكر اياديه ويثني على معاليه . لاجل سجادة ارسلها اليه (٢٠٣-٢٠٤)

٤٩ وطلب منه الامير علاء الدين محمود ابن الامير الكبير المنعم مجاهد الدين يرتقش العادي ان يملي عليه كتاباً يكتبه عن نفسه الى الصاحب مجد الدين البهنسي وزير الملك الاشرف موسى ابن الملك العادل ابي بكر بن ايوب في امر املاكه المنتزعة منه ببلاد نصيبين وبلاد الخابور الجارية في مملكة الملك الاشرف . وذكر ذلك في معرض السؤال في سنة اثنتي عشرة وستمائة في شهر رجب (٢٠٤-٢١٧)

٥٠ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الملوك في التهنئة بمولود ولد له (٢١٧-٢١٩)

٥١ كتاب آخر في تهنئة بمولود كتبه عن نفسه الى بعض الملوك الاكابر ايضا (٢١٩-٢٢٠)

٥٢ كتاب آخر في التهنئة بمولود كتبه عن احد الملوك الاكابر الى الخليفة الامام الناصر لدين الله رحمه الله (٢٢٠-٢٢٢)

٥٣ فصل من كتاب (هنا خرم) (٢٢٣-٢٢٤)

٥٤ (كتاب كتبه الى) السلطان الملك الافضل نور الدين علي بن يوسف بن ايوب . وارسله اليه الى حصن صرخد (٢٢٥-٢٢٧)

٥٥ كتاب كتبه السلطان الملك الافضل نور الدين رحمه الله جواباً على هذا الكتاب وسيّره الى ضياء الدين الى الموصل (٢٢٧-٢٣٠)

تم الجزء الثاني من ترسل المولى الصاحب ضياء الدين بتاريخ غرة صفر سنة ست وخمسين وستمائة .

التنبيه والاشراف

ديوان ابن الساعاتي

(٥٥٣ — ٦٠٥ هـ = ١١٥٨ — ١٢٠٨ م)

عني بتحقيقه ونشره لاول مرة انيس المقدسي استاذ الادب العربي
في جامعة بيروت الاميركية
مطبعة الاميركان . سنة ١٩٣٨

الجزء الاول

لا تزال افضال الجامعة الاميركية ببيروت تتوالى في خدمة الادب العربي والتاريخ الشرقي . وهذه « الحلقة الثانية عشرة من سلسلة العلوم الشرقية » التي طوّقوا بها جيد التاريخ والآداب . والديوان المذكور هو الدرّة الاولى التي نثروها من خزانة الشعر في عهد الايوبيين . وقد وُفّق الاستاذ المقدسي لاحياء اثر أنف من آثار الشعراء الشاميين . واصاب بايثارهم على سائر شعراء المشرق ، نظرًا لما في مثل هذه الدواوين البلدية من المواد المعينة على تفهّم ما غمض احيانًا من الاخبار المكانية ، وتحقيق جانب من الخِطَط والمعالم والاعمال ، بما يرد من اسمائها والاشارات اليها في اثناء النظم . فضلًا عما يتخلّل لغتها من التجوّزات والمصطلحات المحدثة التي تناولتها الافواه والاقلام ، واغفلت ذكرها المعاجم وكتب المولّد والدخيل . وقد قدّم بين يدي الديوان فصولًا شائقة وصف فيها النسخ المخطوطة التي نقل عنها وخصائص كل منها . وذكر ما وقف عليه من ترجمة الشاعر ونشأته . وما تخلق به من مزية وطريقة ومعيشة . واشبع الكلام على شعره ومنهجه ومقدرته وافتنانه وافتتانه بالمحسّنات اللفظية والمعنوية . واجاد في مثل هذه الشروح والنعوت إجادة نرجو ان تكون مثلًا وقدوة لكل من يتصدى لنشر شيء من دواوين الشعراء المتقدمين .

وقبل ان نشارك الاستاذ في ابداء ما يحضرنا من الرأي في رواية متن الديوان وتمثيله ، نسترعي نظره الى هِنات وردت في الطبع وأُغفلت في فهرست الاغلاط . وهي :

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
١٢	٦٠	سوى استامهُ	استامهِ
١٢	٧٦	حلولَ الطرفَ	الطرفِ
٢	٩١	طرقت ريحَ الصبا	ريحُ الصبا
١١	٩٥	من مهل غفل وقطعُ معلّم	وقطعِ مُعلِم
١٥	١٠٩	فلما اودّه	اودّه
٧	١١٣	في المِرآة	في المرآه
١٥	١٢٧	ليس تَقيده	تُقيده
٢١	١٣٥	اسمع ربّما	ربها
١٢	١٦٣	تدمي نحورها	تدمى
١٢	١٦٣	عن اكنافها	اكنافها
١٢	١٦٤	ولا تلتَ	ولا تلتُ
١	١٩١	كل ملثّ	مُلِثّ
١٧	١٩٣	عن كأسِ فدامه	كأسِ
٦	٢٠٨	بعد فراقُ	فراقِ
١٠	٢١٧	مَدام بُدامهِ	مُدام مُدامه
٧	٢٢١	لون لمّتهُ	لمّتهِ
٢	٢٩١	وقد جهتنا	جمعتنا
١٥	٢٩٤	بوصلِ النعمى	بوصلِ

ويلحق بهذه الصغائر اهمال الهمزة او اثباتها على خلاف القياس في ما جمع على مفاعل وفعائل مما زيد في مفرده حرف مدّ ثالث او كان اصلياً . نذكر منه :

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
٩	٧٧	مخائل	مخايل
٥	٩٥	تايج	تائج
١١	٩٥	بنايق	بنائق
٣٠	٩٨	منايح	منائح
٦	١١٥	مصائد	مصايد
١٧	١٦٣	مخائل	مخايل

ومع ان الاستاذ بذل غاية الجهد والعناية في ضبط المتن ، واختار له اصح الروايات، بعد المعارضة ، وعلّق على بعض الفاظه والغازه شروحاً طبّق فيها مفصل الصواب ، فقد ندّ عنه مواضع نستأذنه في الاشارة اليها والبحث فيها خدمة للعلم . واول ما تراءى لنا من رواية الإعلام الدمشقية ان الاستاذ مع ما اتّسم به من الانس ، لم يتفق له ان يأنس يوماً بربوع الفيحاء ورياضها . ولا عنّ له حين تمثيل الديوان ان يتعرّف على الاقل مواضع اللهو والتنزّه فيها التي تغنّى بها ابن الساعاتي في شعره . بل لم يتثبت ايضاً في ضبط اللقب الذي أطلق عليها غلطاً وهو جلّق فرواه مرتين :

الاولى وما بحتُ لولا نفحة جُلَّقِيَّة حبيس عليها طل دمعي ووابله (س ١٥ ص ٢٧)
والثانية احبابنا بالنوطتين وجُلَّق سلام وهل يدني البعيد سلام (س ٤ ص ٢٠٤)

اي بضم الجيم وفتح اللام ، والجيم مكسورة في كل الاقوال . ولو راجع معجم البلدان لقرأ فيه قول ياقوت « جِلِّق بكسرتين وتشديد اللام وقاف . كذا ضبطه الازهري والجوهريّ » . وقد اجاز بعضهم فتح اللام ولكن المشهور كسرها .

واشدّ من ذلك قلة أُلفته باسماء بعض الانهار حتى عدّها من جملة الاماكن والتزى في حاشية له على البيت :

سقيا لمهد النيربين ومسرح الـغزلان من بردى الى باناس (س ١٢ ص ٩٠)

فقال : « النيربين اسم مكان في الشام وكذلك باناس وبانياس (حاشية ٦) وانما باناس اشهر انهار دمشق بعد بردى . وهو مع القنوات نهرا المدينة حاكمان عليها ومسلّطان على ديارها .

ولما مرَّ به البيت :

فيراس مَزّتها الى قنواتها فالواديَين الى شعاب منينها (س ١٦ ص ١٢٤)

اقتصر على القول ان المزة وقنوات ومنين اسماء اماكن هناك . وكان الاصح ان ينبه على ان قنوات هو احد انهار دمشق السبعة . ويطلق احياناً على المحلة التي يسقي منازلها . وضبط المزّة بفتح الميم كما تلفظه العامة - والصواب بكسرها كما في معجم البلدان . وهي من امّهات قرى دمشق - ولا شك انهم اختاروا كسر الميم تمييزاً لها عن المَزّة بالفتح وهي الخمر اللذيذة الطعم اللاذعة اللسان . وما كان ضرّه لو كان بدلًا من الابهام في التعريف ، وهو آفة كتب البلدان والخطط ، لو نصَّ على ان منين قرية غنّاء بظاهر دمشق شمالي جبل قاسيون . وان الواديَين هما الغربي والقبلي من المرجة الخضراء . وهذه ايضاحات لا غنى عنها في تفسير شعر دمشقي .

وربما عدل احياناً عن الرواية الصحيحة مع ورودها في نسختين وآثر عليها تصحيحاً انفردت به نسخة ثالثة . كما فعل في البيت :

حبيب اليّ الشهم تندى شماله واعطاف بان السفح ترهى شمائله (س ١٧ ص ٢٢)

قال في الحاشية (٣) « السهم بالسين المهملة . في النسختين » . وما ندري

ايّ معنى تبين له من اختيار لفظ الشهم بالشين وهو الرجل الجلد الذكي الفؤاد . ولا اي مناسبة وجدها على هذا المعنى بين الصدر والعجز . وفي العجز تصريح ببيان السفح اي سفح قاسيون او الصالحية . وكان ذكره وحده كافياً لتنبيهه الى ان هنالك مكاناً اراده ابن الساعاتي وتشوّق اليه . وهو السهم بالسين احد متنزّهات دمشق القديمة المتصلة بارض الصالحية . وقد حنّ اليه الشاعر غير مرّة في ديوانه . وقرن بينه وبين سفحي قاسيون في قوله :

سقى الله سفحي قاسيون وسهمه وما ضمّ حينًا كهفه ومقامه (س ١٤ ص ٣٦٠)

وقد اشكل عليه هنا ايضاً لفظ السهم وقال في الحاشية: « كذا الاصل . ولعله وبهمه (يريد بهمه بالباء) اي وما عليه من غنم وبقر » . وهذا التفسير هو جمع بهيمة . والبُهم في اللغة جمع بهيم وهو ما لا شِيَة له من الخيل ، والنعجة السوداء . وقد اعتادت الشعراء ان تدعو دائماً بالسقيا للازمنة التي يُتشوّق اليها او للامكنة والبلاد التي يُتحسَّر على فراقها . فتحولت بهذا التفسير الى الغنم والبقر . ويشقّ جداً على الدمشقي الذي كان معجباً بصالحيته ينشد فيها البيت المشهور :

الصالحيــة جنّــة والصالحون بها اقاموا

ان يقرأ اليوم في كتاب شاميّ ان هذه الجنة اصبحت مرتعاً للغنم والابقار ، بعد ان كانت مطلعاً للشموس والاقمار . وتفسيره الخيف في العجز بالناحية او ما ارتفع عن مسيل الماء ليس بالصواب . وانما هو هنا كل هبوط وارتقاء في سفح الجبل وهو اولى بسفح قاسيون .

ومن الابيات التي مدح بها ايضاً ابن الساعاتي سهم الصالحية قوله في الجزء الثاني من الديوان يفخر بدمشق وبشرفها الاعلى :

ما جلّق الفيحاء الا جنّة فضلها وحي الكتاب المنزل
فالشرف الاعلى بتيه شرفًا والسهم سهم والسموم مقتل

ومن قرى دمشق التي ورد ذكرها في الجزء الاول ، فيما عدا المزة ، ومنين وبرزة ، والقابون ، قرية داريا الكبرى . قال :

من لي بداريا الى حاراتها وموقف الاحباب من اطلالها (س ٣ ص ٣٦٦)

والحارة كل محلة دنت منازلها . وهذه اول مرة نقرأ لشاعر دمشقي ذكراً

لحارات القرى . ولذلك يترجح لدينا ان الاصل «جاراتها» بالجيم يعني قريتي خولان وبلاس في جوار داريا . وقد دثرت الاولى وعفت آثارها . وبقي من الثانية مزرعة صغيرة تسمى اليوم «حوش بلاس» . والى احداها اشار ابن منير الطرابلسي بقوله :

فالماطرون فداريًا فجارها فآبل فمغاني دير قانون

ومن الاعلام التي شكّ الاستاذ فيها «عسفان» في البيت الآتي :

وُخذلت يوم دعوتكم بسُويقة الاولى وذي الاخرى على عسفان (س ٩ ص ٢٥٩)

قال : كذا في النسختين . ولعل عسفان اسم مكان (حاشية[٢]) وفي معجم ياقوت ان عسفان «قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلًا من مكة» . وقد أُولع ابن الساعاتي بالتنزل باسماء مواضع في الحجاز واليمامة ، على مَحْلها وشقائها ، مجاراةً للشعراء الاقدمين ، او حبًا بالجناس وهو آفة شعره . ومن اظهر الادلة على هذا التكلف والتقليد قوله :

يتيّم قلبي ظبي تيمآء ظالمًا ويوضح ما اخفيته عنك توضح (س ٩ ص ٢٦٢)

وتيماء بُليد بين الشام ووادي القرى . وتوضح من قرى اليمامة . وهذا النزوع الى الحجاز والقفار المجدبة وايثارها مرارًا على مغاني الحضر عجيب من شاعر دمشقي نشأ وترعرع في مدينة :

ما بين جابيها وباب بريدها قمر يغيب والف بدر يطلع

وقد علق بيوم سُوَيقة والحّ وابرم حتى عددنا له في الجزء الاول وحده تسع قصائد كرّر فيها ذكره . وحسبنا لاول وهلة انه يعني بالسويقة احدى سويقات دمشق . حيث قد يكون اتفق له في عهد الصبا حادثة غرام تركت في فؤاده جرحًا لا يندمل . ولكننا حين قرأنا البيت السابق الذي قرن فيه بين سويقة وعسفان . وطالعنا قوله من قصيدة اخرى :

وتفرت سهم القلب يوم سويقة والنَعْف من رشقات تلك الاسهم (س ٦ ص ٣٣٥)

تذكرنا ببيت الاحوص :

وما تركت ايام نعف سويقة لقلبك من سلاك صبرًا ولا عزما

تحققنا انه في كل المواضع لا يريد الا السويقة الحجازية التي نشدها الاحوص، ونصيّب ، وذو الرمّة ، وكثيّر ، وابن هرمة . واتضح لنا هوس الرجل وطمعه

بتقيل الشعراء الاقدمين والخطو على آثارهم

ومثل هذا الإملال بتكرار الالفاظ والمعاني كثير في الديوان . ومع ما يتولى القارئ من الإعجاب والطرب بما يمرّ به من جزالة وبلاغة وحسن وشي وتصوير ، لا يلبث ان يسأم على التوالي كل هذه المعادات . والطبع كما قيل موكل بمعاداتها . ولا بأس ان نختار معنى واحداً كَلِف ابن الساعاتي بترداده في عدة قصائد له . وألبسه كل مرة حلة غير الاخرى . ونبدأ بالبيت الاول من هذه القصائد لما تبين لنا من وهم الاستاذ في تصحيح اهم لفظ فيه وهو قوله :

وبهجتي شَرِق المآزر فعمها ظمآن اوشحة له ومناطق (س ١٤ ص ١٢٠)

كذا روى فعمها بالغين . قال « وفي النسختين فعمها » ولم نجد في ما بين يدينا من كتب اللغة انه ورد فغم بالغين بمعنى الطيب الرائحة . ونعجب من الاستاذ كيف رجّح لفظاً لم يسمع على آخر مسموع نبهت عليه المعاجم وهو الفعم اي المفعم الملآن . وقد اثبته هو بنفسه في بيت آخر :

فُبليتُ بنعم الردف لدن قوامه ضيف مناط الخصر اهيف اغيد (س ٨ ص ١٢٠)

واعاد ابن الساعاتي هذا الوصف في بيت ثالث فقال :

عظمت روادفها وعقد نطاقها للضعف حلقة خاتم في خنصر (س ١٨ ص ١٠٥)

وفي بيت رابع :

كلفي بمخصبة الروادف لينها رقّت على الخصر الجديب الماحل (س ١ ص ١٢٢)

وفي بيت خامس :

شموس حسن في بروج الاظعان من كل ظمآن بردف ريّان (س ٦ ص ١٩١)

وفي بيت سادس :

ظمآنة الخصر ريّاً الردف جامعة بين النشاط الى الحاجات والكسل (س ٣٠ ص ٣٢٤)

ومن هذه الابيات في الجزء الاول وحده يتضح جلياً ان مراده بشرق المآزر فعمها ، في البيت الاول : فعم الردف او ريّانه او مُخصبه كما قال في وصف الردف الثقيل تحت الخصر النحيل

ومن هذا القبيل ايضاً تكراره « الثلاث السُنع » في ثلاث قصائد قال فيها :

١ - وبكائي بالاربع الحمر بعد السيض شوقاً الى الثلاث السنع (س ١ ص ١٤٩)

٢ – ابكي الثلاث السفع بعد فرا ق الساكنين باربع حمر (س٦ ص ٢٠٨)
٣ – شجتني الثلاث السفع وهي موائل ففاض لها من ادمعي اربع حمر (س٨ ص ٢١٠)

ولم يستبن للاستاذ الثلاث المراد منها فقال « اما الثلاث السفع فغير واضحة المعنى » (ص ١٤٩ حاشية[١]) قلنا هي الاحجار الثلاثة المسماة بالاثافي التي توضع عليها القدور ، وتبقى موائل بعد الرحيل وتقويض الخيام . وقد اشار الشاعر الى هذه الاثافي بقوله :

كأن المغاني حين اعجمها الشحط بقايا زبور والاثافي لها نقط (س ٩ ص ٧٩)

وانما قيل لهذه الاثافي السُفع والواحدة سفعاء لانها تكون غالباً سوداً تضرب الى الحمرة من مسّ النار

وقد مرّ بالاستاذ كلمة « سفع » ايضاً ولم يفسرها في بيت وصف به ابن الساعاتي قصيدة له فقال :

قدّست بيتها المعالي فللأفها م حج اليه من كل سفع (س١٦ ص١٥١)

ولم نجد بين معاني السَفع او السُفع ما يصح اطلاقه هنا . ولا ريب ان الكلمة محرفة عن « صقع » بمعنى الناحية وهو ما يقتضيه المقام .

ومما أشكل عليه ايضاً فاهمل تفسيره او تردّد فيه ، لتحريف في روايته ، الابيات الآتية :

١ غصن لـه الحجر ثمر ذو الخصر في قيد النظر (س ١٨ ص ١١٢)

قال في الحاشية[٢] « قوله ذو الخصر غير واضح » . قلنا عرّف الخصر للضرورة كقوله : ذو السيف ينثر نظم كل مُفاضة » (ص ١٣٥) يريدانه ذو خصر يستوقف الانظار بدقته ، فهو قيد لها . وهو مأخوذ من قول المتنبي :

وخصر تثبت الابصار فيه كأن عليه من حدقٍ نطاقا

٢ أعد نظراً في الصبح يتنق الدجى والا فقي الكافور بالمسك يعشب (س ١٦ ص ١١٧)

وقد سكت عن لفظة يُعشب فلم يذكر لها وجهاً او تأويلاً . ولا سبيل لتفسير إعشاب الكافور بالمسك . وعندنا ان اللفظة محرفة عن « يُشعَب » بتقديم الشين على العين اي يُجمع . شبّه العذار في خد المحبوب بالليل يعتنقه الصبح ، او بالمسك يجمع بالكافور .

٣ ما زال هذا القلب يسبح بالدمى متعرضاً حتى أصيب شغافه (س ٥ ص ١٣٢)

قال : « كذا في الاصل . ولعل سبح هنا بمعنى لها » . ولم ينقل احد من ارباب اللغة ان سبح وردت مرة بمعنى لها . والذي يتبين لنا ان الكلمة محرفة عن سنح بالنون بمعنى عرض اي يسنح للدمى متعرضاً لها .

٤ تعنو الفوارس سُجَّدًا لحسامه صُعر الخدود لغيره لم تسجد (س ٢٢ ص١٣٥)

وبين قوله سُجَّدًا صعر الخدود وقوله لم تسجد بالميم تناقض ظاهر . لان معنى سجد رفع رأسه تكبراً وهو خلاف السجود . وقد صرف الاستاذ نظره عن هذا التناقض فلم يعلّله بوجه . والصواب عندنا « لم تسجد » اي ان الفوارس تسجد لحسامه ولا تسجد لغيره .

• دانوا له وثنى الضراب بطنه موجاً فظنّوه حنية مسجد (س ١ ص ١٣٦)

قال : « الضمير يرجع الى السيف اي اصبح من الضرب كقنطرة المسجد » . والقنطرة في اللغة الجسر وما ارتفع من البنيان . واطلاقها على القوس من اصطلاح البنّائين . والاصح ان يقال كحنية المحراب في المسجد . وهي مأخوذة من حنية الكنيسة لنصف قبة في صدرها . يريد ان السيف ثناه كثرة الضراب حتى اصبح متقوساً كالحنية .

٦ لبسوا من الغدران اي سوابغ وعلوا من الخلجان اي بواتر (س ١١ ص ١٧٢)

وفي الحاشية تعليقاً على لفظة « علوا » : « كذا في الاصل » . والبيت في وصف معشر ورثوا الممالك . وقطعوا في الاستيلاء عليها ظهور الانهار وركبوا متون الخلجان . شبه مياه الانهار بالدروع السوابغ لتجعدها بفعل الرياح كما قيل :

نسج الريح على الماء زرد يا له درعاً منيعاً لو جمد

وشبه صفحات الخلجان بالسيوف البواتر . وهو كقوله من قصيدة في الجزء الثاني :

كأنما مياهها قواضب جرّدها الصيقل من اجفانها

٧ لولا الوفاء وحفظي ما اضمّت لما لبستُ قرطيَّ فيكِ اللوم والعذلا (س ٩ ص١٧٣)

قال في التعليق على كلمة قرطيَّ : « كذا في الاصل . ولعلها فرضيَّ اي ثوبيَّ » ولا نذكر اننا قرأنا قط لشاعر لفظة فرض بمعنى الثوب على ورودها في المعاجم . وكلمة قرطيّ صحيحة لا غبار عليها . شبه الشاعر اللوم والعذل على

كثرة تلبسه بها وورودها على سمعه بالقرطين اللذين لا يفارقان شحمة الاذن. وكان بعض الرجال قديماً يتطوّقون ويتقرّطون كالنساء في بعض الاحوال

٨ اذا صُقلت بالمسح فهي صوارم وان نُصلت بالنفس فهي سهام (س ٧ ص ٢٠٥)

الضمير للاقلام. قال في تفسير نصلت: «كذا الاصل. ولعله يقصد غمست او خضبت. فيكون الفعل من الاضداد». ولم يسمع قط نصلت اللحية بمعنى خضبت ليكون الفعل من الاضداد وانما المقصود نصل السهم اذا ثبت في النصل. يشبه الاقلام اذا مسحت من المداد بالسيوف الصوارم. واذا أثبتت فيه وغمست بالسهام المثبتة في النصال.

٩ يا بارقاً صدع الدجى من ومضه سهم رق
قلبي وانت وقرطه كل اهيم اذا خفق (س ١٤ ص ٢٢٥)

قال في تأويل كلمة «اهيم»: «كذا الاصل وهو غير جليّ المعنى». قلنا ان الاصل لا شك «كل يهيم» اي اذا خفق البرق والقلب والقرط. فخفوق كل منها هو من شدة الحب والهيام.

١٠ امّه من سلالة الزنج والروم بنوها ترضيك فرعاً واصلا (س ٤ ص ٢٣٠)

الوصف للقلم. فسّر قوله من سلالة الزنج والروم بانه «من قصب اسود وابيض». ولم يُذكر قط ان الاقصاب كانت يوماً بيضاً. واذا كنى بالزنج عن الاقلام السود فلا محالة انه كنى ايضاً بالروم عن الاقلام الصفر. ومعلوم ان العرب كانوا يسمّون الروم بني الاصفر

١١ مدحها كالنسيب طيباً وما ضمـن اوصاف زينب وأمامـا (س ٣٨ ص ٢٤٥)

قال «لعلها امامه فقلب الهاء الفاً». والصواب ان أمام ترخيم امامة كفاطم وفاطمة في بيت امرئ القيس «أفاطمَ مهلاً بعض هذا التدلّل» ولكنه من الترخيم في غير حده. لانه لا يقع الا في النداء.

ومما تصحف في متن الديوان حروف رويت على علاتها. نذكرها فيما يأتي مع تصحيحها تتمة للفائدة:

١ واماً لسفح دمشق حيث تفاوحت كثبانه وترنّحت باناته (س ١٧ ص ٦٤)

ولم يجئ من فاح فعل تفاوح وانما هو من اغلاط النساخ. والاصل تناوحت بالنون اي تقابلت. وهذا المعنى اليق بالمقام

٣ ‌ هو موقف الشكوى الذي لولاه ما ‌ فتكت بقلب اسوده ظبيّاته (س ١٨ ص ٦٤)

والغُلْب بالغين هي الاسود في اللغة فلا معنى لاضافتها الى نفسها والاصل بقلب اسوده كما رواه الاستاذ نفسه في وصفه شعر ابن الساعاتي (ص ٤٠) .

٣ ‌ في ثناياه لمن يرشفها ‌ أثر منّ مجار للقُبَل (س ١٦ ص ٧٥)

وليس بين معاني الأثر في اللغة ما يصح ان يكون مجرى للقُبل . فلا ريب ان اللفظة مصحّفة عن أُشر بالشين وهو التحزيز الذي في الاسنان

٤ ‌ وسقى الحيا مغنى الشآم واهله ‌ واعمّ ثم اخص باب بريده

آمّا لموقف ساعة وَلّى بها ‌ نفسي وما ملكت جزاء معيده (س ١٩ ص ١٩٥)

كذا روى وَلّى بالتشديد والالف المقصورة . ولا يظهر على هذه الرواية معنى للبيت . والصواب « أُولي بها » اي اعطي نفسي وما ملكت جزاء لمن يعيد لي موقفي في باب البريد .

٥ ‌ يبقى مساحب بردها وماوطئت ‌ صوب الغمامين من دمع ومن ديَمِ (س ١٧ ص ٢٢١)

كذا يبقى بالقاف والالف المقصورة . وهو خلاف المعنى المقصود . والصواب يبغي بالغين والباء . اي ان دمع المحب ودمع الغمام كلاهما يبغي ويتتبع مساحب بردها وموطئ قدميها لتقبيل آثارها .

٦ ‌ وليست لحاظًا رانيات تظافرت ‌ على جلدي بل رايات من النُبل (س ٨ ص ٢٠٦)

ولم يُنقل تظافر في اللغة . والكتابة الصحيحة تضافرت بالضاد . اي تعاونت وتظاهرت .

ومن الاعلام التي تصحفت بقلم النساخ قوله : قال ايضاً وقد كتب بها الى الشهاب قينان (س ١٠ ص ٢٧٣) وانما هو الشهاب فتيان الشاغوري احد شعراء دمشق في عهد ابن الساعاتي . ومثله الظهير الحبشي (س ١ ص ٢٨٨) وانما هو ظهير الدين الحنفي الاربلي .

وقد سردنا اولًا اغلاط الطبع وعددنا بينها معظم ما وجدناه من اوهام الشكل والنقط . تحاشياً من نسبتها الى سهو قلم الاستاذ . وبقيت بقية لا بأس من التنبيه عليها هنا . وهي :

١ ‌ والطير فوق فروع الايك صادحة ‌ صدح المشوق الى احبابه الغُيَّب (س ٦ ص ٧٣)

الغُيَّب جمع غيوب . وليس هنا ما يقتضي استعمال لفظة المبالغة . والاظهر ان الاصل الغَيَب بفتحتين جمع غائب . وهو الافصح .

٢ بجيث سويداء الفؤاد حراقة وقلبي زناد والصبابة قادح (س ١٨ ص ٩٨)
والمنقول حُراقة بالضم .

٣ لوعة لا تبلّ مدنفها المضنى ودمع لا يبلّ أواما (س ١٨ ص ١٤٣)
والصواب لا يَبِلّ اي لا يبرأ المضنى بها .

٤ شربتُ فيها شعاع الشمس مشرقة صبح من الكأس تجلوه يدا قمر (س ٧ ص ٢٢٣)
قال « كذا الاصل » . والصواب « مَشرقةُ » بالهاء . وهو مبتدأ خبره صبح

• يا سائرًا ما الصبر الا عن سواه بمستطاع
بُلّغتَ يوم البين مُنيتَه من العهد المُضاع (س ١٧ ص ٢٢٨)
والصواب «بلّغتَ» . على المعلوم كما هو ظاهر عند التأمل .

وقد تقدّم ان الاستاذ قد يعدل احياناً عن الرواية الصحيحة على ورودها في احدى النسخ لديه . ويزيّد عليها وهماً ظاهراً كما صنع في هذا البيت :

هُمُ رغبوا بي عن اجابة حادث فلي في خطاب الخطب مطل وتيان (س ٨ ص ١٣١)
قال : « والاصل ليأن » . وما ندري اي معنى تبين له هنا من التيان حتى آثره على الاصل الصحيح . وفي اساس البلاغة لواه دينه مَطَله ليًّا وليّانا . فهو من مرادفات المطل . ونظيره البيت الآتي :

يا من لأبيض كل جفن اسود هذي تدي ان اللواحظ لا تدي (س ٣ ص ١٣٤)
قال : وفي الاصل « هذي يدي » . ولم يذكر الى اي شيء يومئ اسم الاشارة في قوله « هذي تدي » . ولا اي معنى يستخلص منه . وكان الاولى اتباع الاصل . ومعناه انا ضامن لك . ويدي رهينة بان قتيل اللواحظ لا دِيَة له . وهذا البيت مثل من الامثال العديدة من شعر ابن الساعاتي التي لم يأتِ فيها بمعنى طائل لتهافته على الجناس والمحسّنات اللفظية .

وهنالك ابيات كثيرة غلب عليها الغموض والاشكال فلا يستتم لها معنى صحيح لتصحف بعض الفاظها باقلام النساخ فلم نتعرض لها .

ولا نشك ان الاستاذ سيتحفنا في آخر الجزء الثاني من الديوان بفصل خاص يدرس فيه لغة ابن الساعاتي . وما انفرد به من التصرف احياناً بالمنقول . وخالف به الوضع والقياس . وما احدثه مرة بعد اخرى من الصِّيَغ والابنية التي لم ترد في المعاجم . وينبّه على بعض الالفاظ المولّدة التي مرّت له في اثناء النظم . ولا تخفى على احد فوائد هذه الدروس في تاريخ لغة الحضارة .

اخبار حلب وحوادثها

من السنة ١٨٥٥ الى السنة ١٨٦٥

اخذاً عن يومية المعلّم نعوم البخّاش

المخطوطة الوحيدة ، نشرها وعلق عليها

الاب فرديناند توتل اليسوعي ٨

ذيل

تم الكتاب بعونه تعالى ونشر بهمة المطبعة الكاثوليكية فسهُل لمطالعة القراء وبرز بحلة قشية وضّاحة بعد ان أجهدت العينُ في قراءة متنهِ الدقيق المكتظ على ورقه الاصفر الذابل وأعملت الانامل في غربلته وتنقيحه وطرح ما لزم طرحه منه كما اشرنا الى ذلك في المقدمة وقد تركنا المخطوطة في المكتبة الشرقية في كلية القديس يوسف في بيروت مرجعاً لمن شاء الزيادة على ما رويناه . وساعدتنا الظروف فاقمنا في حلب الاشهر الطوال تسنّى لنا في غضونها التنقيش على الوثائق القديمة فعثرنا على طائفة منها فادرجنا منها ما ادرجناه في حواشي تغلغلت في اليومية تغلغل النمل في غبار الحوادث على مدة عشر سنوات تقريباً ١٨٥٥—١٨٦٥

على شتات تلك المواد المتناثرة لا بد من القاء النظرات العامة فنلم «الغبار» ونجمعه في طينة مرصوصة تكون كاللبنة في البناء خدمةً لمن يضعون تاريخ الشباء . فهي صفحة منه في الاحوال الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية وذيل لليومية وحواشيها وتكملة للمقدمة واصل للمقال الافرنسي الذي سينشر في المؤلّف المطبوع على حدة تقريباً مناله الى المستشرقين .

في هذا البحث سوف نستمين بالتعليات التي نستفيدها من تبويب الاعلام وترتيبها طبقاً لصيغتها ومعناها المتصل اما بجنس المسمّى او بصفته او بصنعته

وبسائر المفردات المذكورة في الفهارس وقد وفقنا في نقلها الى الافرنسية خدمةً لمعجم اللغة وللمستشرقين

الحالة الطبيعية

ان سكان بيروت وطرابلس وصيدا وغيرها من مدن وقرى الساحل اللبناني يجدون في القرب منهم شرقاً الجبل ومنتزهاته بين هضاب وحزون في ظل الاشجار وعند مجاري المياه وغرباً البحر وافقه الواصل بينهم وبين شواطئ المتوسط الرابط بينهم وبين شعوب الارض فيستمدون من مواقعهم الطبيعية مرافق الفسحة والرغد والعشرة والانس مما يغنيهم عن العلاقات المتواترة بينهم. ورب مستوطن بيروت عاش فيها الاعوام ولم يتصل باهل الحي من جيرته وهو أعلق باهل القرية التي نزح منها الى الساحل منه باهل الاحياء التي تعج بسكان أتوها من مشارق البلاد ومغاربها. والى تلك القرية مسقط راس الكثيرين يحن سكان مدن الساحل ويعودون اليها في مواسم الاصطياف وينسون فيها هموم الاشغال والمتاعب.

اما حلب على ما يطوقها من الاخضرار المحف بها عند مجاري مياه قويق ومصبات قناة حيلان فشهباء هي ومحيطها صحراوي فلا رياض ولا غاب وافقها واسع فسيح الا في الناحية الغربية حيث منحدرات جبل سمعان ولا ماء الا ما يروي الانسان والحيوان احتساباً ويقصر عن احياء النبات حياة وافرة بهيجة.

نعم ان للقويق وثباته وطغيانه وقد يرمقه المعلم نعوم البخاش بعين ساهرة لا ليتوقع الحالة المناسبة للصيد فقط ولكن لكي يسير ايضاً بتلامذته الى «جبل النهر» فيدلهم على الحد الذي يبلغ «الطوفان» ارتفاعاً عند طاحون «الجبيلات» فيلاحظ تلوّن الماء بين احمرار واضطراب ويدوّن ملاحظاته «اليومية» كانه يترجم لقول الشاعر وقد رواه كامل الغزي في «نهر الذهب في تاريخ حلب» في الجزء الاول الصفحة ٥٤ فقال:

«قويق اذا شمّ ريحَ الشتا اظهر تيهاً وكبراً عجيبا
وساءل دجلة والنيل والفرا ت بهاءً ولطفاً وحسناً وطيبا
وان اقبل الصيف ابصرته ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا

اذا ما الضفادع نادينه قويق قويق ابا ان يجيبا
وتمشي الجرادة فيه فلا تكاد قوايمها ان تغيبا

فلم يكن النهر موردًا يغني السكان عن طلب النزهة والانشراح في مواضع سواه .

وكانت ظواهر البلد وانحاؤها مجدبة مقفرة وبساتينها قليلة المياه ليس فيها ما يستهوي قلوب الاهالي شأن المنتزهات في لبنان وكان لا بد ان يكتفي الحلبيون بما لديهم من وسائل الراحة ضمن حدود المدينة فضلًا عن ان قلة الامن كانت ترد الاهالي الى داخل البيوت فيحسنونها ويتأنقون بزخرفها وزينتها ويلجأون اليها فيستأنسون بعشرة الجيرة والاقارب ويتفننون في اختراع وسائل التسلية والمسرة في محيطهم الضيق واذا حدثتهم النفس بالخروج من البلدة فلا يخرجون الا زرافات يتحامون بعددهم من قطعة الطرق.

ذلك ما ادّى بالبخاش الى الاصطحاب بتن ذكرهم من رفقته واذا سمع ان الامن غير مستتب في ناحية عدل عنها الى غيرها وحول وجهته من المسلمية الى الوضيحي وكان يُعد جريئاً متحاماً شاذةً من الشواذات في ولعه بالصيد والتنزه وارتياده البساتين . اما سائر الحلبيين فكان ذوو النعمة منهم « يبستنون » في السنة مرة او مرات معدودة وربما احدت الاخويات،ولم تزل الى يومنا تؤدي،فرصة يتخذها بعضهم للتمتع بالفسحة واستنشاق الهواء الطلق ولهم في عددهم مأمن من عداوة الاعداء . وللبخاش نكتة مملحة في هذا الصدد : رُوي عن جماعة خرجوا الى البستان وكانوا قد اوصوا على العشاء من رز ولوبية او فاوله وفراريج مشوية وأرسل لهم العشاء بثلاث طناجر لما جاء قوم سرقوا الطناجر وبات المبستنون ولا طعام لهم غير العشاء الا الخبز و« الجبس » [١١٣أ] .

وان في الكلام على موقع حلب الجغرافي وحالتها الطبيعية سبيلًا الى سرد اسماء الاثمار والنبات التي جاءت في اليومية وهي محصولات حلب الطبيعية .

من اجاص واكيدنيا وبابونج وبرتقال وتفاح وتوت وتين وبصل الخزاما وبنفسج وتمر الحنة وجبس وحصرم وحنطة وخس وخشخاش ورمان وزعرور وسمر وعنب وعنب فيوعي وفاوله وفستق وقطن وقلب الطير وليمون ومشمش

ونسرين ونعناع .

وكذلك اسماء الحيوانات من طيور كالبومة والترغل والدالول والدج والزرزور والسمرمر والصفري والفرخ المكحل والقوال .

ومن الحيوانات الداجنة كالجمل والحمار والبغل.

ومن الدبابات كالجرادة والزلعطان والعلق .

اما الاسماك وقد ذكرت في اليومية فقد وفقنا الى الحصول على تسعة انواع منها فصورناها ولم يضبط قياسها بالطول والعرض لانها تنمو ويتفاوت حجمها مع تفاوت عمرها ومع ذلك فلاسمائها مفيدة لتعيين هويتها في سبيل وضع اسمائها اصطلاحاً عن الصيادين الحلبيين وهم احق من غيرهم بان يعرفونا بها فتدمج في القاموس وحالت ظروف الحرب الحالية دون استفتاء استاذ علم الحيوان في معهد الطب الافرنسي لمعرفة مرادفاتها باللغة الافرنسية واليك صورها والارقام تدل على الاسماء.

١ قاصورة	٤ براق	٧ تريس
٢ برميد	٥ تقل	٨ عريسه
٣ بني	٦ سلال	٩ انكليزي

واضف الى هذه الناحية من النظرات العامة ما جاء عن اسماء الامراض والعقاقير وعن التعليمات المفيدة اساليب الطب في ذلك الزمان.

فمن اسماء الادوية والعقاقير تمر هندي جاي خيار جنبير دهن القبار راوند زيت خروع طعم الفار عنبر بغداد كحل كوكرت معجون الورد ملح طرطير .

ومن اسماء الامراض حرسان حماوة داي طاعون ما شرها هوا اصفر وباء هزة الحيط ابو خبيط

ومن الاعلام الواردة في اليومية ولها علاقة في احوال البلد الطبيعية ما دل على حيوان وجاء مستعاراً لما بين المسمى العاقل والغير العاقل من التشابه في صفة حسنة او سيئة وانما الغرض من ذكرها في هذا المقام اتصال الاسم بمفردات علم الحيوان والدليل على وجود المسمى في البلاد.

فمنها ما اخذ عن الطير كبازي وحسون وديك وقاق.

او عن حيوانات داجنة كجروة وجمل وغزالة او ضارية كدياب وسبع ودب او عن حشرة كدبانة .

وما اكثر ما وجد من امثالها في اسماء الناس عند الشعوب القديمة والحديثة وخاصة عند العرب. راجع في هذا الموضوع: أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري المطبوع في هامش كتاب: المثل السائر لابن الاثير مصر ١٩٣٥ وقابل بين ما قلناه وما جاء في الكتاب المذكور من اسماء الناس المسمّين باسماء النبات والطير والسباع والهوام (ص ٤١ وما بعدها).

الحالة الاجتماعية

ذكر البخاش عددًا وافرًا من الاعلام في اليومية ولم يظهر في هذه الاعلام غالباً الا المسيحية ويضرب صفحاً او يكاد عن غير المسيحيين وأما بين هؤلاء فيخص بالذكر ابناء طائفته وبعض من تعرف اليهم من غير طوائف بواسطة تلامذته واهاليهم وعلاقاته معهم وقد يفيدنا بحث السبب في ذلك الايجاز لما فيه من النظرات النافعة درس حياتنا الاجتماعية .

لقد قيض لهذه البلاد ان تكون منقسمة عشائر وطوائف ومذاهب منذ القدم. ولما فتحها العرب لم يغيروا حالتها وزادوا على الطوائف الموجودة فيها طائفة او طوائف جديدة بظهور الدين الاسلامي فيها. واحتل الاتراك البلاد فايدوا نظام الطوائف واغنت العاطفة الطائفية الاهلين عن الاهتمام بفكرة وعاطفة وطنية جامعة كما تعرف في البلاد الغربية .

فعاش السوريون على مدى القرون طوائف وما بينهم بعد الفتح الاسلامي صارت الطائفة الاسلامية تتمتع باكثرية العدد وبنفوذ الحكام ودينها معروف كدين البلاد الرسمي وشرعها القرآني اساس في التشريع بما يخص الاحوال الشخصية وفي حكمه يعيش سكان البلاد من سائر الطوائف.

وكان البخاش على بساطة علمه فطناً ذكياً عارفاً بما جاء في كتب الشرع الاسلامي عن الاحكام في اهل الذمة مما لا يُنادىَ به عادةً على رؤوس الملا ولا ينشر في الجرائد وقد صار بعض المعاصرين يحسبونه مطوياً في طيات الاوراق

منسوخاً منسياً ؛ ولكن ما ان تحدث ازمة سياسية الا ويُسمع القول به وهو قريب المنال للقراء. مطبوع ليس في الكتب الادبية الموضوعة للعامة ايضاً فاقرأ في هذا الصدد المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي (الفصل الثاني من الباب الحادي والعشرين) وكن على بصيرة من الامر. هي الاحكام والاقوال المنسوبة الى عمر بن الخطاب والخليفة المتوكل وغيرهما . لقد اكل الدهر عليها وشرب وأُلغيت او كادت ولكن تأثيرها لم يمح بعد من حياة البلاد الاجتماعية وانا نحن منها كالجرح اذا ضمد سكن وجعه وهدأ وما ان يُنكأ حتى يدمى ويؤلم لان اثره باقٍ ولم يشفَ الشفاء التام. ذلك ما احس به نعوم البخاش كما احس به المسيحيون في البلاد التي لا حقوق مدنية لهم فيها الا بذمة المسلمين. وكانت لسوء الحظ حوادث الخمسين قد وقعت منذ عهد قريب وقد شاهد معاصرو البخاش كما شاهد هو ايضاً بام العين تدمير الكنائس وذبح الابرياء وسلب البيوت وحرقها ذلك ما جعل في قلبه خوف الحمل من ذكر الذئب تجاه فئة غير قليلة من سكان البلد. فكان في كل عيد « الله اكبر » يتوقع شراً جديداً ويذكر « تربن » المسلمين واني اذا ما تكلمت عن الامر لا انسى ان عدداً وافراً من المسلمين يعيشون وايانا في السلام والمحبة والمجاملة بالخير لكن للحقيقة التاريخية حقوقها والامر الواقع شاهد على ان في حلب التي تعد اليوم زهاء ٣٠٠ الف نسمة ينفصل فيها الجزء الشرقي عن الجزء الغربي لا باودية وجبال ولكن بحواجز امنع من الانهر والصخور انما هي الحواجز الاجتماعية. ان مظاهرها مؤصلة بعادات واخلاق موروثة وقد يكون عنوانها حجاب النساء. وطرق السكنى التي يتميز بها بيت المسلم من بيت المسيحي الى غير ذلك مما يجعل الاحياء المسيحية والمسلمة تكاد تكون ، في وجوه عدة ، اجنبية بعضها تجاه البعض . نعم ان الجميع يتمتعون بنور شمس واحدة ويستنشقون هواء جوّ واحد ويشربون مياه بلدة واحدة ويتكلمون لغة واحدة ولكن لقد شاءت الاقدار ان فئة من البلدة لا تختلط بالفئة الاخرى . ان هناك حرفة القصابين لا يحترفها غالباً الا المسلمون وغيرها كحرفة الحبالين والدبّاغين مما يلجئ المسيحيين الى التعاطي مع جيرانهم من غير ديانتهم في هذه المعاملات وفي غيرها مثلها. ورب شاب مسيحي

عمل لمسلم ومسلم لمسيحي بغاية الاخلاص ولكن تلك الملاقات وامثالها لا تتجاوز حدّ الاخذ والعطاء والمجاملة بالحسنى اما الاتصال الباطني المترتب على امتزاج الدم بالزيجات وبالاختلاط في العوائد والاخلاق فلا وجود له. وعلى هذه الروح ربيت الناشئة ؛ شئنا ام ابينا !

ذلك هو السبب الاساسي الذي حوّل نظر البخاش عن احوال المسلمين فقد جهلها او تجاهلها ولم يدونها اليومية خشية محذور اذا ما وقعت في ايدي من لم يستطيبوا قراءتها فدسوا الدسائس ورفعوا الشكوى عليه. ولا ننسى ان في ذلك العصر وبعد عهد البخاش بسنوات قُبض على جبرائيل دلال وحبس ثم مات في الحبس لما القي عليه من الشبهات في كتابات لم ترض عليها السلطة فتمثل صاحب اليومية بقول الشاعر: « الصمت زين والسكوت سلامة » وسكت.

ومع ذلك فقد وفّى الاعيان والحكام المسلمين حقهم من الثناء في كل فرصة سانحة فشكر للمفتي بهاء الدين ولثريا باشا سهرهما على حفظ الامن وتجاوز حدّ اقتضابه المألوف ووصف الحفلة التي اقامها الباشا لما قلّد النيشان الهمايوني سيادة المطران جرجس شلحت فاركبه على حصانه وشيعه بالجنود والموسيقى فعرف نعوم البخاش لذوي المعروف احسانهم.

وشمل سكوته اليهود لقلة الاختلاط بينهم وبين المسيحيين وانعزالهم في عيشتهم القومية

اما ذكره المسيحيين فلو خلا كتاب اليومية وقد ياتي بصورة صادقة لحياتهم واخلاقهم واعمالهم. ليس منهم من يقطن الارياف واذا قصدوا الى القرى خارج حلب لشغل تجاري او زراعي لا يعشمون ان يعودوا اليها ؛ ومن شيمهم التفطن وهم مطيعون خاضعون للسلطة فيدفعون الضرائب البدلية عن الاعناق والترابية عن الاملاك لمن أُقيم عليهم جابياً من ذويهم.

وبينما كان رعايا الدولة العثمانية في الروملي بعد اعلان خط كول خانه الهمايوني يسعون بالقوة الى تحصيل المساواة بينهم وبين المسلمين وتنشب من ثم الثورات في بلاد البلقان لعدم تحقيق امنيات الاقليات لم يكن المسيحيون الحلبيون الا راضين بحالتهم ولا يبالغون في معرفة هل تجري بالفعل التنظيمات الخيرية. وكان

البخاش ترجماناً لتلك الحالة اذا وصف اشتراكهم في افراح البلد في عيد الجلوس الهمايوني وتجنبهم اثارة المشاغب وخضوعهم للباشوات وتقديرهم تعب واخلاص من عمل في سبيل المصلحة العامة.

وقوَّم البخاش بالمسرة اخبار افراحهم وملاهيهم وحياتهم القومية: فحضور روايات الخيالاتي ولعب الضومينو او الضاما او الطاولة او الطاب ودك وعمي عميش والسماع الى نوبة آجق باش او قطرميز وشرب التتون في الغليون او التنباك في النارجيلة مع القهوة في المقاهي او في البيوت؛ والجلوس في الكشك عند مرور موكب في الطريق فينظرون منه قدوم الباشا في النهار او مرور العروس او عودة الناس من سهراتهم حاملين الافنار او الفوانيس في الليل او قضاء ساعات الاصيل في الديوانخانة او الليوان في الصيف او في المربع في الشتاء. فيعصرون البرتقال بالمفرمة ويتناولون فنجان القهوة بالظرف الفضي ثم يردونه الى الصمدية مع شيش الناركيلة بعد انصراف الضيوف ويأكلون المأكولات العادية كلحم العجين وألقديد المحشي واللوبية والمقادم والشوربة والزبيب والرز والكبة والجبن والبسطرمة وخشاف البرتقال ويشربون الخمرة والعرق ويتأنقون في طبخ الفراريج المشوية والقراص الشبيني وسائر انواع الحلوى من ثقيلة كالكرابيج والزلابية والكنافات والخفيفة كالمرصبان والغرموش والكلاسه.

وكان الرجال يلبسون الفروة والشال خجخور الوردي والقبقاب في الشتاء والقميص الحسيني والقنباز «سبع ملوك» الهندي وحرير بغداد ومثالها في الصيف وكانت النساء يتبخترن بالتنورة المقصبة وتفاصيل الباطستة او الحرير.

هي فوائد اليومية في الناحية الاجتماعية وقد يحق ذكرها في الناحيتين الطبيعية والاقتصادية ايضاً كما ان لذكر الطب والامراض والعقاقير واسماء النبات والحيوان الذي اتى في وصف حالة البلد الطبيعية له مقامه في هذا الفصل وفي الذي بعده ولكن كفى القراء ما اوردناه.

وهناك من الاعلام فوائد اجتماعية منها ان اغلب الاسماء اتت بصورة لقب لا بصورة كنية وهذا معقول نسبة لعدد الاهالي لان الكنى كثيراً ما تؤدي الى الالتباس بين شخص وشخص فترى في كتابنـا الاسماء بالالقاب عديدة واغلبها

تصطبغ بالصبغة العربيــة ودليل على تغلب هذه اللغة على لغات البلاد الاصلية اعني العبرية والسريانية واليونانية. ولفتت فيها نظرنا كثرة الاسماء الدالة على لون او صفة بدنية او عقلية سواء أجاءت بصيغة الموصوف او الصفة:

ابرص اخرس اديب ازرق اسود اسير اشرم اصفر اعور اكشر بطق بليط ثابت جد جامي حاتم حافظ خشفة خليل سالم ساله شيار شعراوي شيبان شيخو صادر صعب صغير صوفي ضاهر طويل ظلط عاصي عاقل عزوز غالي غانم غضبان غلام فارس فخر قرالي كرم مراش مرعب مسرة مشحور مشق مظلوم معوض مقل ملتلت ملهوف نصره هذوم.

على ان اثر اللغات القديمة لم يمح بعد من حلب واليك ما جاء من الاسماء المأخوذة من العهد القديم: ادم ابراهيم ارميا اسماعيل امون ايوب جبران حوا خاطي (او حتي) سليمان داود عازار ومنها من قديسي العهد الجديد او من اعلامه المشاهير وبعضهم يونان:

ارسان اسبير اسكندر اليان انطون باسيل بربارة بهنا بهنان بولص توتل توما جرجي سابا قلاوص كسبار كيرلس ديمتريوس متري مرقس ميشيل ميليا نيقولاوس نقولا يعقوب يوسف.

ولعلّ بعض الاسماء الواردة في اليومية دلت على تعمم اصحابها بالعروبة وذكرتنا باعلام الاقدمين ومنها المركبة كعبد الاحد وعبد المسيح ومنها المتصلة بعلم الهيئة كرعد وهلال ومطر ونجم او باسماء الشهور والازمنة كرجب ورمضان من اسماء المسلمين ونصف الليل من اسماء المسيحيين ومنها مــا ذكر بحدث كهدايا وقرقوعه وصفرا وحجه ومنها ما دل على آلة ككرباج وناقوز وطارة ومكانسي.

ومنها ما دل على وعاء كقطرميز وصندوق.

ومنها على عضو من اعضاء الانسان كزلعوم وسنان.

وهناك طائفة من الاسماء التبس امرها علينا ولا سبيل الى تحليلها في هذا المقام وبين يدينا منها عدد وافر مأخوذ ليس من اليومية فقط ولكن من سجلات الطوائف ايضاً. واليك ما جاء منها في كتابنا ومعرفته مفيدة لحياة البلد الاجتماعية

عسى ان يكشف هذا الافق لاعين القراء ناحيةً جديدة من انحاء تاريخ البلاد فيسعوا في تحليل الاعلام ودرسها ولهم فيها تفكهة وافادة:

بغدان بلطي جبيتر جونا جنادري جنبرت جوغلاط دمتي روالا رويتيني زمريا رنده زنكيه زوين سمحيري سيان شاهيات شبشول شلحت شوايا شوغا صدف صريدار صلابا عبوش عيواظ عابو فستوك قجله قدشه كركوز كلياتي كتيسر كوريخ ماروص مرشو منش ميشا ميناس نجو.

الحالة الاقتصادية

ليس من شأننا بحث الحالة الاقتصادية المطول ايام كتب البخاش يوميته والموضوع جدير بان يتناوله احد ادباء التجار الحلبيين، من لهم من خبرة الاشغال وفراغ الوقت وطولة الباع في التحرير والصبر على التفتيش عن الوثائق التي تمكنهم من القيام بتلك المهمة حق القيام ولا تزال طائفة من تلك الوثائق محفوظة في دور الناس عامةً وفي دور القناصل خاصةً. ومن المعلوم ان القنصل كثيرًا ما كان يتعاطى اعمالًا مزدوجة مستفيدة بعضها من بعض فيعمل لدولته في حقل السياسة ولنفسه في حقل التجارة ويكاتب مراجعه على الحالة التجارية والصناعية في ايامه وعلى الصرافة والزراعة وسائر ما يهم رجال السفارات في علاقاتهم الرسمية مع البلاد الموكل بامرها اليهم. وهذه المخابرات مرجع قيم لاوضاع التاريخ الاقتصادي فضلًا عن السياسي. وهناك عدد وافر من المكاتيب التجارية المحفوظة في بيوت التجار القديمة واخص منها ما اطلعت عليه في بيت السيد الياس بليط فانها مادة مشحونة بتعليمات وافرة على اسماء التجار المتازين في ذلك العهد وعلى مواد التجارة التي تعاطوها مع بلاد الافرنج او بلاد الشرق بين صادرات وواردات مع حركة الصرافة والبنك في ارسال الذهب او الاوراق المالية ذلك كله اذا ما نشر يوماً سوف يستفيد من تعليمات نعوم البخاش ويفيدها.

لم يكن البخاش تاجرًا ومهنته التعليم لكنه كان انموذجاً لعدد غير قليل من الحلبيين من يحرصون على القرش ثم يشغلونه وعلى اساس هذه المعاملة بنيت ثروة الطبقة الموسرة من الاهالي. ان موقع حلب الجغرافي جعلها منذ القدم محطة

للقافلات ايابا وذهابا بين خليج فارس والبحر المتوسط وكان التجار يرافقون تلك القافلات فاذا حطوا في خان من خانات حلب كانوا يسلمون ويتسلمون الاموال واثقانها وكان الكثيرون من الحلبيين لهم مصالحهم في تلك الحركة فيتصلون باصحابها مباشرةً او بالواسطة ويأتمنونهم على مبالغ من النقود او على كميات من السلع او المحصولات وقد صارت مادةً للمبادلات في المتجر . وكان نعوم البخاش في كل شهر بــل في كل اسبوع يتقاضى شيئاً من راتب المدرسة عن التلاميذ . وكان مصروفه البيتي قليلًا لانه كثيرًا ما كان يُدعى لتناول الطعام عند الناس . وكان ينال من الهدايا من اقمشة وغيرها ما كان يكفيه مؤونة النفقات الطائلة فيستغل في كل شهر دريهمات يجمعها ويثملها بالطريقة التي وصفناها سواء اوضعها بالفائدة في مصرف من المصارف أو ارسلها بولسة الى مرسيليا او قرضها القاطرجي بين حلب وكليز . وهو دقيق في ضبط حساباته يقيد الخارج والداخل بعناية بليغة ولا يفوته تدوين اليومية الغرش ونصفه وربعه في ابتياع نوافل الاشياء كالتتون او في وفاء ما يترتب عليه للمطران في النورية او للكاهن او لمرشد الاخوية في الاعياد او للقندلفت او الحارس في المواسم . ويوفق بحسن الادارة على ما يظهر الى جمع ثروة لا بأس منها طالما مكنته من تعاطي الاشغال مع بر الترك واوربا والعجم . وفي اليومية وحواشيها اثار هذه المعاطاة فهي طورًا تخصه وطورًا تخص غيره سردها على سبيل سائر ما اتى بــه من الاخبار ومنها نتعلم الخطوط التجارية التي كانت تربط حلب بالمدن التي ذكرها .

فكان فيها بين النهرين بصره وبغداد والموصل . وفي بلاد سورية ولبنان ادلب وسويدية ولاذقية ودمشق وفي بلاد مصر الاسكندرية . وفي بلاد الافرنج لونده وليفربول ومنشستر ومرسيلية وباريز وتريسته وليفورنا . وفي بر الترك ادنه وازمير واسكندرونه واسلامبول وانطاكية وانقره وبانيس وترسوس وديار بكر وعينتاب وقونية وكلز وماردين ومرسين ومرعش وملطية واليبرقلي .

تلك هي الامكنة والبلدان المرتبطة مع حلب بالتجارة واليك رجالها من كانوا يتجشمون المخاطر ويغامرون في الاسفار الى ان يحطوا رحالهم في حلب فيستوطنوها فيغلب عليهم لقب البلد التي صدروا منها او اتصلوا بها اشد الاتصال

وذكرهم يكشف لنا عن مغمضات حركة تنقل الاهالي في الزمان الماضي واليك اسماءهم :

ادلبي ارمني اسلامبولية اسطنبلي انطاكي بربري بشراني بغدادي بندقي بودي تركماني ترمذي حمضاني حمصي دويهي ساحلاني شامي عبديني عجم عجمي عكاوي كردي كلداني كلزي كندي لادقاني ماردنلي معري مقدسي موصلي هندي هندية .

فترى انهم أتوا من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ومن الجنوب عسى ان يوفق الكتبة يوماً بفضل اكتشافات اثار جديدة الى تحقيق زمان نزوح العائلات المذكورة والعلاقة بينها وبين حوادث التاريخ العامة .

والمثل في ذلك انك اذا فطنت الى كون الكثيرين من مسيحي المدن المصرية ينتمون الى اصل سوري دخلوا ارض الفراعنة في سياق القرن الماضي فهمت ان لنزوحهم سبباً اما في حوادث الستين المشؤومة التي الجأت عدداً غير قليل من المسيحيين الى هجر بلادهم الشامية واما في النهضة التي اخذت ترفع البلاد المصرية منذ عهد محمد علي الى مستوى نجاحها العصري فجذبت اليها مئات المهاجرين من بلادنا مَن قصدوها في طلب الرزق. وكذلك ربما افادتنا الايام عن الاسباب التي دخلت من اجلها مدينة الشهباء أسر اتت من بر الترك والعراق ولبنان واوروبا واظهرت الصلة بين قدوم تلك الاسر الى حلب وبين الحوادث العامة من حرب او مشروع تجاري او صناعي كتبدل الدولة بدولة وانتقال الحكم من المماليك الى بني عثمان او فتح طريق رأس رجاء الصالح او نقب ترعة سويس فاجتذاب او ابتعاد التجار الى حلب وعنها. والمادة اوسع من ان تشملها هذه الصفحات ولها علاقاتها في اثار البلدة من خانات ودور وحمامات الى غير ذلك مما جاء ذكره في مؤرخي حلب الاقدمين كابن شحنة وابن العديم .

وإن تبويب الاسماء اخذاً بتحليلها بالمبنى والمعنى ادّى بنا الى معرفة ارباب الصناعة والمهن والحرف نكتفي بضرب لانحتها وهي باب مفتوح على درس ناحية خاصة من نواحي حلب الاقتصادية :

بخاش بردخجي بصال تاجر توتنجي جانجي حائك حداد حفّار حكيم (طبيب)

حلاق خياط دالاتي دباغ دقاق دلال رباط سقال سمان شاشاتي شقال صاجاتي عبجي مخملجي مشاطي طرازي طحان طنبرجي عرقتنجي عـال غزال فتال قصاب قصار قهراتي كبابه كتابه كرا الجوابي كيال مداراتي مصفي معمرجي معمرباشي نجار نقاشه وكيل. وكذلك اصحاب الوظائف وكلها كنائسية خوري شدياق شماس قسيس قس نصرالله قندلفت.

ويلاحظ في مجموعة هذه الاشيا. مصداق لقول المؤرخين عن الهيأة الاجتماعية ان الغير المسلمين في الدول الاسلامية كانوا يتعاطون الصناعة والتجارة والصرافة والمهن الحرة.

وفي كتابنا طائفة من الاسما. الاعجمية المتنوعة الاصل فمنها التركية آجق باشا الطنجي بازرجي بيـاز اوغلي بشخنجي زنبكلي دوجه جي اوغلى سكران شوكتلي كورنلي يغمور.

ومنها فارسية ابراهيمشاه وخاتونشاه وطهاز.

ومنها ارمنية اروتين خاجيك خجدور سوكياس كركور كيورك وانيس

وهي دليل على وفرة عدد الاجانب الذين اقاموا في حلب ولهم فيها مصالح اغنتهم عن البقا. في بلادهم الاصلية ومنهم الافرنج من الانكليز وفرنسيس والمان وطليان ويونان وغيرهم:

بارك بتراكي بيجوتو برتران برتيه برنابا بنتيفوليو بربولاني بوخه بوريار بوشتي بولاكي بيريه بيلبيوس بيوس تومازيني جاني جليا جوفروا جنبير او شنبير جنو جوان جوستيني جوليان جيس دوناطو ريفا ست سكين شاتري دلافوس شستان صولا فلاق فيلكروز فين قباليار كاتينكه كتفاكو كوبا كوندلف مرتين مركوبولي مريانا مولىناري وغيرها مما لا مقام الى تبويبها وتفسيرها فنلقي بسلسلتها بين ايدي القرا. عسى ان يوفق غيرنا الى بحثها واستنتاج فوائدها.

ولله الحمد في البد. والختام.

٣ فهرس

اهم اعلام الامكنة الواردة في اليومية

فهارس المشرق

للسنة السابعة والثلاثين
١٩٣٩

فهرس اوّل

لموادّ السنة السابعة والثلاثين من مجلة المشرق

فهرس ثانٍ

يحتوي اسماء كتبة المشرق ومقالاتهم

فهرس ثالث

للمطبوعات التي ورد وصفها في السنة السابعة والثلاثين للمشرق

على ترتيب اسماء مؤلفيها

١ — المطبوعات العربية والسريانية الخ·

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن و ي

٢ — المطبوعات الاوروبية

فهرس رابع

لجميع موادّ السنة السابعة والثلاثين من المشرق